الفصل الثاني

مراكز النشاط التجاري البحري ومؤسساته

من القرن ٥ – ٧ هـ/١١ – ١٣ م

أولاً– مراكز النشاط التجاري البحري:

أ– مراكز النشاط التجاري البحري بالمغرب الأدنى

ب – مراكز النشاط التجاري البحري بالمغربين الأوسط والأقصى

جـ – مراكز النشاط التجاري البحري في بلاد الأندلس

د – مراكز النشاط التجاري البحري الافرنجية وجزر البحر المتوسط

هـ – مراكز النشاط التجاري البحري في بلاد الشام

و – مراكز النشاط التجاري البحري في مصر والبحر الأحمر

ز– مراكز النشاط التجاري البحري على طريق الشرق الأقصى

ثانياً – مؤسسات النشاط التجاري البحري:

أ – الموانئ

ب – المؤسسات الإدارية

جـ – المؤسسات التجارية

د – المؤسسات الخدمية

ثالثاً – نظام العمل اليومي والرقابة في مراكز النشاط التجاري البحري:

أ – نظام العمل اليومي

ب – الرقابة

obeikan.com

obeikan.com

يتناول هذا الفصل المراكز التجارية البحرية التي دخلت في نطاق النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى، سواء كانت هذه المراكز داخل بلاد المغرب الأدنى نفسها أم كانت محطة لإستقبال التجار المغاربة أثناء رحلاتهم التجارية، أم كانت مصدراً لسلع تم شحنها إلى بلاد المغرب الأدنى أم مستقبلة لسلع قادمة من المغرب الأدنى، كما سنتعرض في هذا الفصل لمؤسسات التجارة البحرية في تلك المراكز ومنها الموانئ والفنادق والمؤسسات التجارية والخدمية الأخرى، وذلك فيما يلي:

أولاً– مراكز النشاط التجاري البحري:

كانت للملاحة البحرية الإسلامية موانيها العامرة بالنشاط التجاري البحري على سواحل البحرين المتوسط والأحمر وعلى طول امتداد الطريق إلى الشرق الأقصى، وذلك حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، لذلك يجب إلقاء الضوء على الأنشطة التجارية بتلك المراكز وتطورها[١] في حدود موضوع هذه الدراسة .

أ– مراكز النشاط التجاري البحري بالمغرب الأدنى:

حفلت بلاد المغرب الأدنى وهي الحيز الجغرافي الأساسي في بحثنا بوجود العديد من المراكز التجارية البحرية والتي تميزت أنها كانت نقطة إلتقاء بين التجارة البحرية والتجارة الصحراوية، كما كانت هناك عدة جزر تقابل ذلك الساحل تميزت باقتران اسمها بالتجارة البحرية، وهذا ما نتعرف عليه من خلال استعراضنا لتلك المراكز والجزر .

---

١) حسين مؤنس: عالم الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠٠م، ص٢٧٦، الحبيب الجنحاني: مرجع سابق، ص٧٦.

obeikan.com

كان قصر طلميثة هو أول هذه المراكز من ناحية الشرق، وكان حصن جيد البناء عامر بالتجار والمراكب التجارية التي كانت تقصده بالبضائع خاصة الامتعة الحسنة من القطن، كما كان ميناؤه ميناء لتصدير سلع أخري مثل العسل والقطران والسمن خاصة إلى مدينة الاسكندرية[١]. ويزيد من قيمة قصر طلميثة كمركز تجاري بحري أنه كان إمتداد لمدينة برقة التي كانت من أهم المراكز التجارية في بلاد المغرب، فقد تدفقت عليها البضائع من الشرق والغرب والجنوب. كما اشتهرت بكثرة التجار والغرباء لما فيها من التجارة، لاسيما وأنها كانت من أهم مراكز صناعة الجلود ودبغها، وكانت تصدر كميات وفيرة منها ، حيث أنفردت في التجارة بالجلود المجلوبة للدباغ بمصر وكذلك التمور الواصلة اليها من جزيرة اوجله، ولها أسواق لبيع الصوف والفُلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من المشرق والواردة من المغرب. وأسعار الأغذيه بها رخيصة في أغلب الأوقات[٢].

وكانت (مدينة اجدابيه) المدينة التجارية الثانية من ناحية الشرق، وترجع أهميتها إلى أن قوافل التجار الصحراوية كانت تمر عليها بكثرة، وكان لموقعها على البحر المتوسط أثره في قدوم المراكب التجارية إليها بالمتاع والجهاز وتصدر عنها سلع تجارية متنوعة. وأكثر ما يصدر منها الاكسية المقاربة وشُقة الصوف، كما كانت نقطة إلتقاء بين التجارة البرية والبحرية، وبها حمامات وفنادق كثيرة وأسواقها حافلة تقصدها التجار[٣].

---

١) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٥، ٣١٦، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٦٦، ١٦٧.

٢) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٦٩، البكري: مصدر سابق، ص٥، ياقوت الحموي: مصدر سابق، جـ١، ص٣٨٩، شوقي عبد القوى عثمان حبيب: التجارة بين مصر وأفريقيا، ص٣٨، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩.

٣) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٦٩، ٧٠، الحميري: مصدر سابق، ص١٢،

obeikan.com

وتعدُ مدينة (سرت) المدينة الثالثة التي تقع بعد أجدابية من ناحية الشرق؛ وكانت مركزاً تجاريا هاماً يتفوق علي اجدابيه من ناحية مواردها المالية والتجارية. كما كانت مقصدا للسفن التجارية، حيث كانت ترد عليها المراكب أيضاً بالمتاع كما صدرت بعض تلك السلع كالشبّ السرتي، حيث اشتهرت بكثرة إنتاجه كذلك اشتهرت بانتاج الصوف وتصديره[١].

وكان لمدينة (طرابلس) أيضاً أهميتها التجارية التي ترجع إلى موقعها كأهم مركز تجاري يقع بين القيروان والاسكندرية، ونقطة اتصال بين بلدان شمال البحر المتوسط ودول ما وراء الصحراء، وقد أكدت مصادر تلك الفترة على ازدهار الحركة التجارية بها. وتتميز مدينة (طرابلس) بوقوعها على طرق القوافل الرئيسية مما زاد في دخلها نتيجة ما تحصل عليه من ضرائب من مرور تلك القوافل. وكان مينائها صالح لرسو السفن التجارية خاصة سفن بلاد الروم والمغرب التي كانت محملة بضروب الامتعة والمطاعم، وكانت حافلة بالأسواق وهذه الأسواق بها الكثير من الفنادق والحمامات المجهزة لخدمة التجار الوافدين، حيث كانت طرابلس أهم قبلة يتوجه إليها التجار القادمون من مالطة والبندقية وصقلية[٢]، وبالإضافة للتجار الوافدين عليها فإن أكثر أهل طرابلس كانوا تجاراً يسافرون براً وبحراً. كما اشتهرت بتجارة

تقع مدينة أجدابية على الطريق الساحلي على بعد نحو١٧٠ كم جنوب مدينة بنغازي، افتتحها القائد عمرو بن العاص صلحاً عام ٢٢هـ/٦٤٣م، انظر: البكري: مصدر سابق، ص٥، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٦٣.

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٠، ٧١.

٢) المصدر السابق: ص٧١، ٧٢، البكري: مصدر سابق، ص٧، الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٩٧، مارمول: مصدر سابق، جـ٣، ص١٢١، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٥٥.

obeikan.com

الرقيق الأبيض والأسود، وذلك لموقعها على رأس إحدى الطرق التجارية الهامة المؤدية إلى السودان[١].

كما كانت (قابس) من المراكز التجارية الواقعة غرب مدينة طرابلس، وقد اشتهرت تلك المدينة بكثرة الأسواق والفنادق والحمامات، كما اشتهرت بصناعة الجلود. كما كان لها مرسى عظيم ضخم يردها السفن من كل مكان[٢]، وهي بذلك تحقق الميزه التي ذكرناها في المراكز سابقة الذكر والاتية الذكر أيضاً من مراكز المغرب الأدني التجارية، ألا وهي أن تلك المراكز مثلت حلقة الوصل بين التجارة البرية الصحراوية وبين التجارة البحرية

موضوع بحثنا، فتوصف في بعض المصادر أنها : "يلتقي بها الركاب والركب"[٣].

وعُرفت مدينة (صفاقس) بأنها من أهم المراكز التجارية البحرية التي اشتهرت بصادرتها من زيت الزيتون إلى مصر، فقد كان أهم زراعتها الزيتون والزيت بها ليس بغيرها مثله. وكان لها مرسى مميز بركود مائه وفيها أسواق عامرة[٤].

وكانت مدينة (المهدية) مدينة صغيرة كثيرة التجارة محمية بسور وعمارة قوية ومحصنة، حسنة الحمامات والخانات. وكانت المدينة سوقاً نافقة مليئة بالسلع وقناطير البضائع التي كانت تحملها السفن من الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس وبلاد

---

١) التجاني: مصدر سابق، ص٢٥٨، أرشيبالد. لويس: مرجع سابق، ص٣٣٠.

٢) البكري: مصدر سابق، ص١٧، البغدادي: مصدر سابق، ج٣، ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج٤، ص٢٨٩، الادريسي: مصدر سابق، ج١، ص٢٧٩، أبو القاسم الزياني: مصدر سابق، ص٦٨.

٣) مجهول: مجموع رسائل موحدية، ص١٩٠.

٤) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٣، الادريسي: مصدر سابق، ج١، ص٢٨١.

obeikan.com

الروم وغيرها، وتتميز أسواق المهدية بأنها كانت مبنية من الصخر ولها بابان من حديد لا خشب فيها ، وكان لها ضاحية كبيرة تُعرف بزويلة فيها الأسواق والحمامات[١].

وأما (سوسه) فقد كانت مدينة بين الجزيرة والمهدية تكثر بها الأسواق الحسنة والفنادق والحمامات الطيبة، ومواردها المالية وأشكال الجباية الكثير، وكان لهذه المدينة مرفأ من أهم المرافئ التجارية الموجودة في بلاد المغرب. كما تميزت مدينة سوسة بأن أكثر أهلها حاكة ينسجون الثياب السوسية الرفيعة، ويحملها التجار إلى جميع البلاد شرقاً وغرباً، كما أقيمت في مدينة سوسة دار لصناعة السفن والمراكب[٢].

كما تمتعت مدينة تونس بأهمية خاصة في التجارة البحرية لبلاد المغرب لاسيما المغرب الادني، حيث أن الاتفاقيات الدولية في تلك الفترة كانت تشير اليها بشكل خاص كأحد موانئ المغرب الرئيسية المُستخدمة في التجارة البحرية[٣]. وربما يرجع ذلك لمميزات مدينة (تونس) التجارية، ومنها موقعها الجغرافى المناسب. فقد كانت هذه المدينة تقع فى منتصف طريق القوافل بين باقي بلاد المغرب وبين الاقطار التى تقع جنوبى الصحراء من جانب وبين مصر وجيرانها فى الشرق وفى الجنوب من جانب آخر، وكان الوصول إلى صقلية معبر أوربا منها سهلاً وحتى فى سفن صغيرة،

١) الادريسي: مصدر سابق، ص٢٨١، النويري: نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى واخرون، دار الكتب العلمية، بيروت٢٠٠٤م، جـ٢٨، ص٦٩، السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب، ص٥٢.

٢)ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٤، ٧٥، مجهول: الاستبصار، ص١١٩، الادريسي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٩٧، البكري: مصدر سابق، ص٣٤، ٣٦، ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٨٢.

٣) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة، مؤرخة باوائل رمضان ٥٨٢ هـ، ص١٧– ٢٢.

وقد جعل موقع تونس المتوسط فى البحر المتوسط هذه المدينة محطة طبيعية للبضائع الشرقية والغربية، طالما أن السفن لم تكن معتادة على الرحلات الطويلة من اسبانيا أو فرنسا إلى مصر أو سوريا مباشرة. ويعتبر مينائها ميناء داخلي ويمثل قاعدة أمينة من أي خطر. وبتونس أسواق كثيرة وفنادق كبيرة رفيعة[١].

كما كانت مدينة (طبرقة)[٢]عامرة لورود التجار إليها، لاسيما الأندلسيون منهم، فكانت عدوة ومحطة لسفن وأهل الاندلس منها وإليها يسافرون للتجارة[٣]. كما كانت مدينة (بونه) مدينة ذات أهمية أيضاً ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة، وهي مدينة ساحلية لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة، كما اشتهرت بونه بوجود معدن الحديد بشكل كثيف وكانُيحمل منه الي الاقطار كميات كبيرة[٤]. كما كان لـ(عنابة) مرسى صغير غير محمي من رياح الشمال، وتقصده سفن التجارة لشراء الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات[٥].

---

١) العبدري: رحلة العبدرى (الرحلة المغربية)، تحقيق محمد الفاسى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ١٩٦٨م، ص٣٩، ابن الشماع: مصدر سابق، ص٣٦، ٣٧، ابن ابي دينار: مصدر سابق، ص١٠، جويتاين: مرجع سابق، ص٢٢٥، نريمان عبد الكريم أحمد: مجتمع افريقية في عصر الولاة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة٢٠٠٠م ، ص١٦١.

٢) تقع مدينة طبرقة بين درنة وباجة من البلاد الإفريقية، وهي على نهر كبير بقرب البحر تدخله السفن، وبها كانت تنشأ السفن لغزو بلاد الروم، وفيها يخرج المرجان ويُصدر إلى جميع بلاد الدنيا، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٣٨٦، ٣٨٧.

٣)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٦، البكري: مصدر سابق، ص٥٧، محمد عادل عبد العزيز ابراهيم: أثر الأندلس الحضاري علي المغرب في عهد دولتي المرابطين والموحدين(٤٥٤-٦٦٨هـ/١٠٦٢- ١٢٦٩م)، رسالة دكتوراه غير منشوره، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة١٩٨٦، ص٢٠.

٤)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٦، ٧٧.

٥) مارمول: مصدر سابق، ج٣، ص٨.

obeikan.com

كما إقترنت عدة جزر تابعة للمغرب الأدني جغرافياً وسياسياً بالنشاط التجاري البحري، وأهم هذه الجزر جزيرة (جربة) والتي تقع بالقرب من يابسة المغرب الأدني وأقرب البلاد لها قابس، وهي مجاورة لليابسة وكانت بمثابة نقطة عبور رئيسية وهامة للتجارة والتجار من والي المغرب الادني، ومركز تجاري للبيع والشراء[١]؛ وذكر البكري الميناء الموجود في جزيرة جربة، حيث ذكر أن مراكب هذه الجزيرة كانت تخرج منه إلى مرسى الأندلسيين، وكان من هذا الميناء ينطلق الزيت المصدر إلى مصر، كما كانت المراكب التي تتوجه الي بلاد الروم لتمويل سكان صقلية وايطاليا وانكبورة وقلورية بالزيت تنطلق منه[٢].

ب – مراكز النشاط التجاري البحري بالمغربين الأوسط والأقصى:

عرفت بلاد المغربين الأوسط والأقصى وجود العديد من المراكز التجارية البحرية التي دخلت بشكل أو بأخر في دائرة النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى، ومن أهم مراكزها التجارية البحرية مدينة (جيجل) وهي مدينة تقع على ضفة البحر والبحر يحيط بها، حيث كانت مقراً لبعض الأنشطة التجارية البحرية[٣].

أما مدينة (بجاية) فتقع على شاطئ البحر وتتبع لإقليم قسنطينة، وكان يسافر إليها عن طريق البر والبحر؛ وهي مركز استقطاب لكثير من البلاد. لذلك ازدهرت بها التجارة البحرية مما أدى إلى ثراء أهلها الذين عملوا في ذلك النشاط[٤].

---

١) الحميري: مصدر سابق، ص١٥٨، الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٩٤.

٢) البكري: مصدر سابق، ص١٩، ٨٥، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٤.

٣) الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٦٩.

٤) المصدر السابق: جـ١، ص٢٦٠، مجهول: الاستبصار، ص٢٠، ٢١، رشيد بورويبة: الدولة الحمادية (تاريخها وحضارتها)، ديوان المطبوعات الجامعية، جامعة الجزائر، الجزائر١٩٧٧م، ص١٤٠.

وكانت (تدلس)[١] مدينة حصينة اشتهرت بكثرة الفواكة الرخيصة بها وكثرة الغنم والبقر وتباع جملتها بالأثمان اليسيرة ويخرج من أرضها إلى كثير من الأفاق، ومنها بالطبع بلاد المغرب الأدنى[٢]. كما كانت مدينة (مرسى الدجاج)[٣] مدينة كبيرة لها مرسى مأمون، ويحمل التين منها إلى سائر الأقطار حتى البعيدة منها[٤]. كذلك كانت مدينة (جزائر بني مزغناي) مدينة ساحلية انتشرت بها الأسواق الرائجة، كما يتاجر أهلها في العسل والسمن ويصدرونه هو والحنطة والشعير[٥].

وكانت مدينة (تنس)[٦]من أهم المدن التي يأتي إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم؛ ولسلطانها بها وجوه من الأموال كثيرة: كالمتاجر الداخلة إليها والخارجة منها[٧]. وكانت تنس مركزاً بحرياً يكثر فيه الاقلاع والحط للسفن، كما اشتهرت بتصدير قمحها إلى جميع الافاق ومنها بلاد المغرب الادنى[٨].

---

١) مدينة تدلس: مدينة كبيرة بحرية بين بجاية والجزائر، انظر: الحميري : مصدر سابق، ص١٣٢.

٢) الادريسي: المصدر السابق، جا، ص٢٥٩.

٣) مدينة مرسى الدجاج : بالقرب من آشير محاطة بالبحر من ثلاث نواحٍ ، وأسواقها ومسجد جامعها داخل ذلك السور، ولها مرفأ غير مأمون وبها عيون طيبة يسكنها الأندلسيون وقبائل من كتامة، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٥٣٩.

٤) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٥٩.

٥)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٧، ٧٨، الادريسي: المصدر السابق، جا، ص٢٥٨.

٦) مدينة تنس: مدينة حصينة بالقرب من مليانة، لها أعمال ومزارع، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص١٣٨.

٧)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٧، ٧٨.

٨) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٥٢،السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب، ص٥٢.

obeikan.com

كما كان لمدينة (وهران) مرسى في غاية السلامة والحماية من كل ريح وعليها سور، وفيهم حميّة مع الغريب وهي مقصد لتجار الأندلس، إليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال[١]. وكان بها أسواق وصنائع كثيرة وتجارات نافقة، وكانت مقصد للسفن من كافة النواحي[٢].

كما زخر ميناء مدينة (سبته) بالحركة التجارية، وكان يشبه في ذلك ميناء الاسكندرية يقول ابن سعيد: "وهذه المدينة – أي سبتة – بين بحرين وهي ركاب البرين تشبه الاسكندرية في كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه الي نقاص "[٣].

أما آخر مراكز بلاد المغرب علي البحر المتوسط فهو (مدينة طنجة)، حيث تميز مينائها بانتعاش الحركة التجارية فيه، فكان يصدر منه الصوف والجلود والفواكه والشمع والعسل وكان يرد إليه الثياب والأسلحة وغير ذلك، كما كانت مركزاً لصناعة السفن[٤].

جـ – مراكز النشاط التجاري البحري في بلاد الأندلس:

عندما نتطلع إلى خريطة الأندلس نجدها أشبه بجزيرة، وهذا يعني– من الناحية النظرية– وجود صلة وثيقة بينها وبين البحر، وتلك العلاقة نشاهدها بقوة في الساحل الشرقي للأندلس، وهو الساحل الذي يربط الأندلس بمركز المعمور في

---

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٩.

٢) الحميري: مصدر سابق، ص٦١٢، ٦١٣.

٣)ابن سعيد: بسط الأرض بالطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، تطوان١٩٥٨م، ص٧٣، ابن حوقل: مصدر سابق، ص٨٠،٧٩.

٤) حسن علي حسن: مرجع سابق، ص٢٧٩، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص٦٤، ٦٥.

obeikan.com

العالم القديم أي البحر المتوسط[١]، حيث كانت معظم القواعد البحرية الأندلسية متوسطية[٢].

لذلك كان للأندلس دور فريد في تجارة غرب المتوسط، كمنطقة عبور ومستودع تجاري امتدت من خلاله الاتصالات التجارية عبر التخوم بين العالم الإسلامي والغرب اللاتيني. ومن وجهة النظر المتوسطية الإسلامية كان الأندلس سوق الطرف الغربي، فهو مستهلك للمستوردات الغربية ومصدر للسلع الأندلسية، ومحطة على طريق البضائع القادمة من أوروبا باتجاه الجنوب إلى دار الإسلام، وكان الأندلس من منظور أوروبي مسيحي نقطة اتصال مع ميدان التجارة الإسلامية، وإحدى القنوات للحصول من خلالها على وسائل الترف المرغوب فيها: مثل توابل الشرق والمعادن الثمينة والأنسجة والورق ومواد أخرى[٣]. وقد عرف المغاربة وهم عمال مهرة وبحارة أكفاء طريقهم إلى المدن الأندلسية، فقد كان هناك علاقة تجارية قوية بين موانئ الأندلس وموانئ المغرب الأدنى ناتجة عن تبادل للسلع ورحلات للتجار[٤].

ومن أهم تلك الموانئ الأندلسية المتوسطية التي دخلت في حيز النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب عامه والمغرب الأدنى على وجه الخصوص مدينة (ألمرية)[٥] والتي وصفها الإدريسي بـ" مدينة الاسلام" لما بلغته من شهرة في مجال الصناعة والتجارة، اذ أنها كانت ميناء تجارياً هاماً، ومركزاً للتجارة الداخلية

١) عُبادة كُحيلة: أندلسيات، كلية الآداب، جامعة القاهرة٢٠٠١م ، ص١٤٥.
٢) عُبادة كُحيلة: عن العرب والبحر، كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠١م، ص٢٨، ٢٩.
٣) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٣٥.
٤) الزهري: مصدر سابق، ص١٠٨، أوليفيا ريمي كونستبل: المرجع السابق، ص٥٥، ٥٦.
٥) ألمرية: مدينة بالأندلس، بناها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد عام٣٤٤هـ /٩٥٥م، وكان يصنع بها العديد من صنوف الآلات المعدنية،وكثر بها الفواكة وأهلها اثرياء،انظر: العذري: مصدر سابق، ص٨٤–٨٦، الحميري:مصدر سابق، ص ٥٣٨.

obeikan.com

والخارجية، فمن ميناءها كانت تبحر السفن إلى شرق المتوسط وإلى العدوة المغربية محملة بمنتجات الأندلس؛ ويقول الادريسي عنها:" والمدينة في ذاتها مدينة كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون إليها كثيرون وكان أهلها مياسير، ولم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع منهم أحوالاً ". وقد ارتبطت هذه المدينة ببلاد المغرب بصلات بحرية وثيقة، فكانت السفن تتردد بين ثغر ألمرية وثغور المغرب مثل وهران وبجاية وجزائر بني مزغنة وتنس وسبتة وتونس. وليس أدل على تأكيد الصفة التجارية الهامة التي تمتعت بها ألمرية في عصر علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ – ٥٣٧هـ/١١٠٦ – ١١٤٣م) أن عدد فنادقها بلغ على حد قول الإدريسي ٩٧٠ فندقاً[١]. وقد ذكر الجغرافي العذري (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) عن المرية أن: " المراكب تصل إلى مينائها وتغادر منه إلى المغرب وبقية أنحاء العالم ". أضف إلى ذلك أن المدينة كانت (قيصرية) الأندلس وحوض بناء السفن، في حين يذكر ياقوت (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م):" أن التجار ينزلون – من المريه – وهنا تصل مراكبهم وتتعاطى التجارة"[٢].

أما مدينة (بلنسية) فهي مدينة في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة ستة عشر يوماً؛ وهي مدينة كثيرة التجارات وبها أسواق وحط وإقلاع، يربطها بالبحر مجري ملاحي داخلي يشبه النهر. وغدت هذه المدينة ميناءً مهماً، وخدمت المدينة كمركز لتجارة ساحل الأندلس، ومنفذ للمنتجات الزراعية المحلية، ولكن البراهين التي

---

١) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس: تحقيق دوزى ودى خويه، مطبعة بريل، ليدن ١٨٦٣م، ص١٩٧، حمدي عبد المنعم محمد حسين: التاريخ السياسي والحضاري، ص٣٤٩ – ٣٥٣.

٢) الزهري: مصدر سابق، ص١٠١، العذري: مصدر سابق، ص٨٦، ياقوت الحموي: مصدر سابق، جـ٥، ص١١٩، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٥٧.

obeikan.com

تشير إلى مساهمتها في الملاحة مباشرة إلي المغرب أو المشرق في العصر الإسلامي قليلة[١].

وتعد (مالقه)[٢] من المراكز التجارية والصناعية المهمة. ويعدد المقري مزايا مدينة مالقة كمركز تجاري هام بقوله: "وهي إحدي قواعد الأندلس، وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البر والبحر". وتشتهر مدينة مالقة بكثرة إنتاجها من الفاكهة المختلفة مثل التين واللوز الذي كان يصدر الي داخل البلاد وخارجها، وتحتوي مدينة مالقة على مبان فخمة وحمامات حسنة وأسواق جامعة كثيرة، كما صدرت هذه المدينة العديد من صناعاتها المشهورة مثل صناعة الفخار المذهب العجيب، وكان يصدر إلى خارج البلاد، وصناعة المنسوجات مثل الثياب المصنوعة من الحرير المزخرف بالذهب التي كانت تصدر الي بلاد المشرق والمغرب، وتُباع بأغلى الأسعار، وقد قايضة تلك السلع بسلع مغربية مختلفة خاصة القمح والشعير والتمر المجلوب من بلاد المغرب من فاس وتنس كما جُلبت إليها الأغنام من تاهرت وقصب السكر من المغرب، وقد ساعد الموقع الجغرافي لمالقة على الساحل الشرقي الجنوبي لبلاد الأندلس على أن تكون منفذاً تجارياً عظيماً الي بلاد المغرب، ومنها إلى بلاد المشرق. ومما زاد من أهمية مالقة كميناء تجاري هام أنه أقيم به دار لصناعة السفن التجارية إلى جانب السفن الحربية وخاصة الحراريق. وقد زادت ثروة مالقة بسبب المكوس المفروضة على تجارة الصادر والوارد وخاصة تجارة الرقيق من الخدم المجلوبين من أرض الصقالبة[٣].

---

١) الحميري: مصدر سابق، ص٩٧، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٥٩.

٢) مالقة: مدينة ساحلية بالأندلس، وهي كثيرة الديار، وبها شجر التين المنسوب إليها،انظر: الحميري:مصدر سابق، ص٥١٧.

٣) المقري: مصدر سابق، جا ، ص١٥٠، ١٥٢، سامية مصطفى مسعد: مرجع سابق، ص١٣٢– ١٣٤.

obeikan.com

كذلك كانت (الجزيرة الخضراء) من أهم المدن التجارية في بلاد الأندلس، فهي تتوسط مدن الساحل وأقرب مدن الأندلس عبوراً إلى العدوة، وبين الجزيرة وبين قرطبة خمسة وخمسون فرسخاً، ويعتبر مرسى الجزيرة من أجود المراسي للعبور وأقربها من البحر، فكانت تقع على ربوة مشرفة على البحر جنوبي الاندلس وتطل على مضيق جبل طارق. وكانت بها دار صناعة السفن، وكان مرساها أحسن المراسي[١].

أما مدينة (بجانة) فهي ميناء يقع على ساحل الأندلس الجنوبي على مصب وادي أندرش شرقي المرية وبينها وبين المرية فرسخان، وبجانة ذات أهمية عظيمة لوقوعها على الساحل الجنوبي للأندلس، إذ كانت منفذاً من المنافذ المؤدية إلى بلاد المغرب: " كانت تجلب إليها الميرة – من بر العدوة ". وكان بها الكثير من الفنادق لنزول التجار والغرباء[٢].

ومن المدن الأندلسية التي دخلت في سياق النشاط التجاري البحري للبحر المتوسط عامة وبلاد المغرب الأدنى خاصه مدينة (المنكب) وتقع على ساحل شبه جزيرة الأندلس، وهي من أعمال البيرة بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً، ولم تكن مجرد دار لصناعة السفن، بل كانت تضم عدداً كبيراً من الأسواق والأرباض مما جعلها مركزاً هاماً لتصدير عدة محاصيل أهمها قصب السكر والموز والزبيب[٣].

كما أن أرخبيل (جزر البليار) يدخل في ذلك السياق، ويقع ذلك الأرخبيل في شرق الأندلس وهو ثلاث جزر أساسية يابسة وميورقة ومنورقة، ومنها تُجلب الملح

---

١)العذري: مصدر سابق، ص١١٧-١٢٠، الحميري: مصدر سابق، ص٢٢٣، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٣٤، ١٣٥.

٢) سامية مصطفي مسعد: المرجع السابق، ص١٣٦.

٣) العذري: مصدر سابق، ص٩٠– ٩٣، الحميري: مصدر سابق، ص٥٤٨، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٣٧.

والخشب إلى بلاد المغرب الأدنى، كذلك يُجلب منهم النبات المعروف بعشبة هلّلت، يُعمل منه نوع من السحر(١).

د – مراكز النشاط التجاري البحري الإفرنجية وجزر البحر المتوسط:

ربط النشاط التجاري البحري بلاد المغرب الادني بالعديد من مراكز البحر المتوسط، وعلى رأسها المراكز التجارية الافرنجية لاسيما المدن الايطالية، وجزر البحر المتوسط لاسيما جزيرة صقلية، وسوف نستعرض لتلك المراكز كلً على حدى فيما يلي.

اشتهرت شبه الجزيرة الايطالية(٢) بوجود العديد من المدن التجارية في فترة الدراسة، والتي دخلت بشكل مباشر في علاقات تجارية مع بلاد المغرب الادني(٣). وتعود أول المعلومات الدالة على إسهام المدن التجارية الإيطالية في تجارة البحر المتوسط البعيدة المدي إلى القرن الأول الهجري/السابع الميلادي بالنسبة لمدينتي

---

١) الزهري : مصدر سابق ، ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٢) إيطاليا إحدى أشباه الجزر الثلاث التي تقع في جنوب أوربا مطلة علي البحر المتوسط، وهي أكثر تأثراً بمناخ هذا البحر. انظر محمد ابراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٤٩–٢٥١. انظر خريطة رقم (١- أ) التي توضح المدن الإيطالية وجزر البحر المتوسط ومدى قربها من سواحل المغرب الأدنى.

٣) بنيامين التطيلي: رحلة بنيامين التطيلي، ترجمها عن العبريه عزرا حداد، تحقيق عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي٢٠٠٢م، ص١٩٢، ٢٠٧، محمد ابراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٤٩ – ٢٥١.

ظلت ايطاليا طوال العصور الوسطي تنهب من غزاة من برابرة أوربا وقد ظهرت بعض دويلات منفصلة، وانضمت هذه الدويلات تحت حكم شرلمان، وبعد وفاته عادت إيطاليا الى دويلات منقسمة، ومن أشهر دويلات المدن فلورنسا وبيزة والبندقية وجنوة، انظر: جوزيف شاخت، كليفورد بوروورث: مرجع سابق، جا، ص٢٩٥، محمد ابراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٤٩– ٢٥١.

Open Kan.com

البندقية وأمالفي[١]. وإلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بالنسبة إلى مدينتي جنوة وبيزة[٢]، وقد صحب نهوض جنوة وبيزة بحرياً نهوض بحري شامل للساحل الكارولنجي القديم بين نهري الابرو والتيبر[٣].

وقد اشتهرت بيزة (بيش في المصادر العربية) بأن أهلها يملكون مراكب التجارة واستعدادهم لركوب البحر وقصد البلاد: "وهؤلاء القوم تجار في البر والبحر يبلغون إلى أقصى الشام وإلى الإسكندرية وديار مصر وأطراف المغرب والأندلس" كما كانت بيزة من مراكز التصدير الرئيسية في منطقة البحر المتوسط خاصة فيما تنتجه تلك البلاد من النحاس والزعفران والقطن[٤].

كذلك اشتهر أهل جنوة بانهم تجار مياسير يسافرون براً وبحراً ويقتحمون سهلاً ووعراً، ولهم أسطول ومعرفة بالأسلحه وفنون الحرب[٥]. وكانت جنوة ذات صفة مميزة في تجارة المغرب الأدني البحرية حتى أن تلك المدينة كانت في تعاملاتها التجارية مع بلاد المغرب عامة، تقتصر على مدن المغرب الأدني لاسيما طرابلس وتونس حتي عام٥٥٤هـ/١١٦٠م، أي مع بداية العلاقات السلمية مع الموحدين

---

١) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص١٩٨– ٢٠٧، جوزيف شاخت، كليفورد بورورث: مرجع سابق، جـ١، ص٢٩٥،

Armand O. Citarella ; Patterns in Medieval Trade: The Commerce of Amalfi Before the Crusades , The Journal of Economic History, Vol. ٢٨, No. ٤ (Dec., ١٩٦٨), p ٥٣١

٢) كانت بيزة تشمل مدينة بيزة نفسها بالإضافة لبعض الجهات المسيطرة عليها، مثل جزر سردانية وقرصقة وابلنيزة والبة وقبرارة ومونت اقرشت وجلْيُه وقرقونة، انظر: اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة ص١٧– ٢٢.

٣) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص ١٩٨– ٢٠٧، أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٤٢، ٣٤٣.

٤) الزهيري: مصدر سابق، ص٧٨، الحميري: مصدر سابق، ص١٢٠.

٥) الزهيري: المصدر السابق، ص٧٨، الحميري: المصدر السابق، ص١٧٣.

obeikan.com

وعقد عدة معاهدات معهم، ولعل ذلك يرجع إلى أن بلاد المغرب الأدنى هي كانت الأقرب لجنوة، خاصة مع إستخدام الطرق الساحلية البعيدة عن البحر المفتوح حيث يكثرة فيها عمليات القرصنة[١].

ومنذ عهد بني زيري خاصه أواخره شهدت الجمهوريتان المتنافستان بيزة وجنوة ازدهاراً اقتصادياً مطرداً؛ وقد أثبتت بعض الوقائع تواصل المبادلات التجارية بين المدن البحرية الإيطالية الأخرى وبين إفريقية. ويبدو رغم افتقارنا إلى الوثائق أن رعايا بيزة قد تفوقوا على رعايا جنوة، حتى تاريخ الفتح الموحدي لاسيما في تونس، حيث تمكنوا من التصالح مع حكامها[٢].

كما كانت البندقية ومنذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي لها أسطول تجاري وحربي ضخم، وكما اهتمت جنوة بتجارة غربي البحر المتوسط، كذلك اهتمت البندقية بالتجارة الشرقية، تشاركها في هذا جنوة وبيزة، واستطاعت البندقية خلالها وهي ملكة الإدرياتي كما كان يطلق عليها، أن تشيد عظمتها وقوتها المادية والاقتصادية على التجارة، وتمتعت بنفوذ عظيم في حوض البحر المتوسط، ولها محطاتها التجارية المنتشرة على شواطئه، وكانت لها علاقاتها القوية مع مصر وشرقي البحر المتوسط ومع العالم الاسلامي تركزت على تجارة الشرقين الأقصى والأدنى، وكانت مركز اتصال حضاري بعيد المدى بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الأوربي[٣].

---

١) Hilmar C. Krueger ; Op,Cit, p ٣٨٠ .

٢) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص١٩٢، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٩٥، ٢٧٢.

٣) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢، ٣.

obeikan.com

وتعددت المدن الأوربية التي كانت تدخل في حيز التجارة البحرية للمغرب الأدنى، منها مدينة مونبيليه[١] بجنوب فرنسا، وهي بلدة تجارية تبعد نحو فرسخين عن الساحل حيث يجتمع التجار من نصاري ومسلمين من مختلف الأمصار بها[٢].

وخلافاً للرأي السائد أنه لا توجد أدلة أن تجار المغرب الأدنى قد ذهبوا إلى مراكز التجارة الافرنجية خاصة المدن الايطالية، إلا أن هناك إشارات وثائقية تثبت بشكل قاطع أن تجار المغرب الأدنى قد عرفوا طريقهم إلى تلك المراكز[٣]. خاصة المدن الايطالية لاسيما بيزة، فقد نصت معاهدة عُقدت في أوائل القرن الثامن الهجري أن على الحكومة البيزية مراعاة التجار المغاربة التابعين للدولة الحفصية متى وصلوا لموانيها: "وعلى أن يكون كل من دخل من المسلمين الذين تحت طاعة الحضرة العلية بلداً من بلاد البيشانيين أو جزرهم أو مرسى من مراسيهم هو آمن بامان الله تعالي في نفسه وماله"[٤].

أما إذا اتجهنا لجزر البحر الأبيض المتوسط، سنجد أن جزيرة (صقلية) قد تميزت بخصوصية سياسية وإقتصادية نتيجة إلى أنها أقرب مناطق الحكم الأوربي لبلاد المغرب الأدنى حتى أن حكامها من الفرنجة قد سيطروا واحتلوا بلاد المغرب الأدنى فترة من الزمن قبل مجئ الموحدين[٥]. ومن خصوصية هذه الجزيرة التجارية أيضاً أن كل السفن المبحرة من أسبانيا أو فرنسا أو الساحل الغربي لإيطاليا صوب

---

١) كان اليهود يطلقون على مدينة مونبيلية اسم הר בצט أي جبل الزلزال، وهذا المعنى مأخوذ عن الفرنسيين، وموقعها في إقليم النغدوقية في جنوبي فرنسا، انظر: بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص١٨٦.

٢) بنيامين التطيلي: المصدر السابق، ص١٨٦.

٣) المصدر السابق: ص١٩١– ١٩٤، ٢١٣.

٤) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزه في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦– ٩٧.

٥) الزهري: مصدر سابق، ص١٣١.

obeikan.com

الشرق الأدنى أو شمال أفريقيا، كان لابد لها أن تمر على مرأى من صقلية الكائنة وسط طريقها. ولم يعد أمام هذه السفن اية مشكلة[١].

لذلك نشطت الحركة التجارية في جزيرة صقلية مع إفريقية وكثرت رحلات التجار منها إلى مدن المهدية وسوسة واستوردت زيت الزيتون من صفاقس، كما كانت صقلية مقصداً للتجار البارزين في تلك الفترة خاصة الذين ينتمون للمغرب الأدنى، سواء المسلمون منهم أم اليهود، وخُصص بهذه الجزيرة حي بأكمله من مدينة بلرم للتجار المسلمين لاسيما المغاربة[٢]، كما كانت الجزيرة تصدر الكثير من منتجاتها الزراعية إلى بلاد المغرب الأدنى[٣].

كما تميزت جزيرة إقريطش(كريت) من الناحية التجارية[٤] بأنها كانت مصدر لبعض السلع المهمه والنادرة مثل الكبة وهي المصطكى الشامية، كما كان يُجلب منها أيضاً الإقريطي وهو عقار رفيع لا يوجد إلا في بلاد الهند، ويوجد بها الكثير من عقاقير الشام وطيبه. وهذه الجزيرة تُضاهي جزائر الهند وتزيد عليها بالفواكه

---

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٩٦، ٢٩٧، ف.هايد: مرجع سابق، جـ١، ١٣٨، ١٣٩.

٢)ابن جبير: مصدر سابق، ص٣٠٥، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٢١١، A Letter from Perahya b. Joseph to Abraham b. Elijah, al-Mahdiyya, Inquiring about Perahya's Uncle Abraham Ben Yiju , Mazara, Sicily, ١١٥١/٢ Bodl. MS. Heb. d. ٦٦ (Cat. ٢٨٧٨), fol. ١٣٩, Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the =Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp٦٦٢-٦٦٤. Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : Op.Cit , pp٥٢, ٦٦. Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters= after His Safe Return from India, pp٦٩٤. ،أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٣٢.

٣) الزهري: مصدر سابق، ص١٣١.

٤) جزيرة كريت: (أقريطش) من جزائر البحر المتوسط، لم يملكها المسلمون قط. وهي كثيرة الخصب، بينها وبين بلاد الشام ستون ميلاً، وبينها وبين جزيرة صقلية تسعمائة ميل، انظر: الزهري: مصدر سابق، ص١٣١، الحميري: مصدر سابق، ص٥١.

والقمح والشعير وفيها كثير من الثمار، غير أن أهلها لا يعرفون الزيتون والزيت إلا ما جُلب إليهم من إفريقية والأندلس[١]. والراجح أن جزر أرخبيل اليونان قد دخل أيضاً حيز التجارة البحرية للمغرب الأدنى، لاسيما مدينة نغروبنت، حيث كانت مقصداً للتجارة والتجار من كل حدب وصوب[٢].

هـ – مراكز النشاط التجاري البحري في بلاد الشام:

هناك ندرة في المعلومات عن وجود علاقات تجارية بين بلاد المغرب الأدنى في فترة البحث ومدن ساحل بلاد الشام في شرق البحر المتوسط، والسبب في ذلك يرجع إلى أن مصر كانت تعتبر نقطة عبور رئيسية بين المشرق والمغرب، وقد كان للتجار المغاربة دور كبير وهام في نقل السلع نحو المشرق خصوصاً الأحجار الكريمة. ونستنتج من بعض الفقرات التي وردت في المصادر الجغرافية وجود علاقات تجارية بين بلاد المغرب وبلاد الشام، فقد ذكر الإدريسي أن زيت زويلة يتجهز به إلى سائر بلاد المشرق، وهذا يدل على العلاقات بين المغرب الأدنى ودول الشام دون استثناء فهذا الزيت يصل إلى الشام والعراق والحجاز[٣].

كما أن العلاقات التجارية مع بلاد الشام قد تدخل في الإشارات العامة التي تتحدث عنها المصادر مثل قول البكري عن صفاقس يقصدها التجار من الآفاق، وهذا يدل أيضاً على وصول التجار من الشام إلى المغرب وهذا دليل على العلاقات التجارية بين بلاد الشام والمغرب الأدنى. والإدريسي يتكلم عن قابس فيقول بأن زيتها يتجهز به إلى سائر النواحي، وبلاد الشام مقصودة بهذه الكلمة النواحي، وقوله عن مرسى الخرز وعن استخراج المرجان بها ويقصد التجار من سائر البلاد هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات. وهو هنا يتحدث عن التجار الذين

١) الزهري: مصدر سابق، ص١٣١.
٢) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص٢١٣.
٣) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٨٣.

obeikan.com

يقصدون مرسى الخرز لصيد المرجان والسفر به إلى مختلف البلاد، ومن هؤلاء التجار تجار الشام. كما يتحدث الإدريسي عن مدينة المهدية فيقول: "والمهدية مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن الحجازية القاصدة إليها من بلاد المشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد"(١). كما أن البغدادي يتكلم عن مرفأ مدينة قابس بأنه كان مرفأ للسفن من كل مكان(٢). أما الزهري فيتحدث عن مدينة تونس فيذكر أنها تصدر المتاع إلى أقطار الأرض(٣).

ومن أدلة وجود علاقات مع الشام أيضاً أن التجار المشارقة كانوا يقدمون إلى المغرب الأدنى وتجار المغاربة يسافرون إلى المشرق دون أن تكون هناك عوائق تذكر، ومن هؤلاء قدوم التاجر العالم هشام بن عطاء بن أبي زيد بن هشام الطرابلسي إلى إفريقية والذي يفهم من اسمه أنه من طرابلس الشرق(٤). ومن أدلة ارتباط المغرب الأدنى ببلاد الشام في علاقات تجارية بحرية مباشرة، ذكر إحدى وثائق الجنيزة أن وكيل تجاري كان يقطن في القدس ويسمي أبون بن صدقه، عاش في القدس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، كان يستثمر لتاجر مغربي وتجار مغاربة اخرين أموال لهم في بلاد الشام(٥).

---

١) الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨١، ٢٩٠، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨١، ٨٠.

٢) مراصد الاطلاع: جـ٣، ص١٠٥.

٣) الزهري: مصدر سابق، ص١٠٩.

٤) عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨٠، ٨١.

٥) A Letter from Abūn b. Ṣadaqa in Jerusalem to Ḥayyim b. ʻAmmār al-Madīnī in Alexandria , Letter dated ١٧ March ١٠٥٥. The original document is in the Taylor-Schechter Collection, Cambridge University, with shelfmark TS ١٣J ٢٥,١٢. English translation, from the Hebrew version in Gil (١٩٨٣b), published in Simonsohn (١٩٩٧), No. ١٠٥, ٢٠٩-١٢. Jeremy Edwards , Sheilagh Ogilvie : Contract Enforcement, Institutions and Social Capital: the Maghribi Traders Reappraised, University of

obeikan.com

وكانت المراكز التجارية على ساحل بلاد الشام[١] مقصد للمغاربة تجار ومسافرين، فقد ربط خط ملاحي من السفن بين بلاد الشام وبلاد المغرب[٢] . ومن مدن الشام التجارية التي يُحتمل أن المغاربة وصلوها بتجارتهم مدينة(عكا)[٣]. حيث كانت محط السفن التجارية من شتى الاتجاهات، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق[٤].

وارتبطت مدينة (صور)[٥] ببلاد المغرب بطريق ملاحي تجاري مباشر ربط بينها وبين مدينة بجاية، كما اشتهرت بوجود خان بها للغرباء من المسافرين والتجار المسلمين عامة والمغاربة على وجه الخصوص[٦]. كما اشتهرت مدينة (طرابلس الشام)[٧] بكثرة الوارد والصادر إليها، وكانت مقصد لجميع انواع التجارات

Cambridge , March ٢٠٠٩, p٦ .

١) حددت المصادر حدود بلاد الشام، حيث كان غربيها بحر الروم، وشرقيها البادية من أيلة إلى الفرات ثم من الفرات الي حد الروم، وشماليها بلاد الروم وجنوبيها مصر، انظر: ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٥٣– ١٥٦، الحميري: مصدر سابق، ص٣٣٥.

٢) ابن جبير: مصدر سابق، ص٣٢، ٣٣، ٤٠، ٤١.

٣) مدينة عكا: مدينة كبيرة بالشام بينها وبين طبرية يومان، وفي تلك الفترة كانت كثيرة الضياع، وبها أخلاط من جنسيات عديدة، وكانت محتلة من الصليبيون أثناء الحملات الصليبية، انظر الحميري: مصدر سابق، ص٤١٠.

٤)ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٧٦.

٥) صور: مدينة ساحلية من بلاد الشام قريبة من عكا، وكانت محتلة في تلك الفترة من الصليبيون،انظر الحميري: مصدر سابق، ص٣٦٩.

٦) ابن جبير: المصدر السابق: ص٢٧٧، بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص٢٣٩.

٧) مدينة طرابلس الشام: مدينة كبيرة بالشام، واشتهرت بمزارع الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكة والغلات أنواع ، والبحر محدق بها من ثلاثة جهات، وكان يتبعها العديد من القلاع والحصون، انظر الحميري: مصدر سابق، ص٣٩٠.

obeikan.com

والبضائع والامتعة والغلات[١]. حيث كان هناك خط ملاحي مباشر يربط بين هذه المدينة وبين بلاد المغرب، يعمل فيه سفن حاكم هذه المدينة ويرد من بلاد المغرب عبره المراكب التجارية المغربية[٢].

و – مراكز النشاط التجاري البحري في مصر والبحر الأحمر[٣]:

تذكر المصادر أهمية مكانة مصر ومراكزها التجارية في التجارة البحرية للعالم الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأدنى خاصة، فهي البرزخ بين البحرين المذكورين في القرآن لأن من الفرما التي هي على ساحل بحر الروم إلى القلزم التي هي على ساحل بحر الصين مسيرة ليلة، يُحمل إليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرين من أنواع الأمتعه والمنتجات المختلفة، فجميع البلدان تحمل إليها وتفرغ فيها، وقد أشار المؤرخون المسلمون إلى موقعها الممتاز فكتبوا أن من فضائل مصر: " أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها؛ وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصي الإفرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق، ومن جهة الإسكندرية

١) الحميري: المصدر السابق، ص٣٩٠، مصطفى محمد الحناوي: مرجع سابق، ص٢٣٩.
٢) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص٥٨.
٣) ابن جبير يسمي البحر الاحمر تارة ببحر فرعون، وتارة ببحر عيذاب، وتارة ببحر جدة. وهو في ذلك ينتهج الطريقة المتبعة آنذاك في تسمية البحار باسماء المدن او البلدان الواقعة علي سواحلها. فالبحر المتوسط كان يُعرف بالبحر الشامي، وبالبحر الرومي، وببحر الاندلس، وببحر المغرب، انظر:امين توفيق الطيبي: مرجع سابق، ص١٠٩.

obeikan.com

فرضة أفريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن"[١].

وكان خير دليل على متانة العلاقات التجارية البحرية بين مراكز مصر التجارية وبلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة، أن أي سفينة تأتي تحمل تجار أو ركاب مغاربة يسألوا عن أحوال المغرب وسلعه؛ مثلما حدث عندما وصلت سفينة ابن جبير لميناء الإسكندرية، حيث استنزل أمناء الميناء أحمد بن حسان أحد المسئولين عن السفينة ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فطيف به مُرقباً على السلطان أولاً ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان . وفي كل يُستفهم ثم يُقيد قوله ثم خلي سبيله[٢]. وسنعرض لأهم تلك المراكز في مصر والبحر الأحمر كما يلي:

تعد مدينة (الإسكندرية) أهم مراكز التجارة الخارجية البحرية ومدخل تجارة المغرب إلى مصر والشرق الأقصى[٣] في فترة الدراسة. فكان يصدر منها معظم المنتجات المحلية والواردات الأسيوية، بيد أن أهميتها ترجع إلى تصدير غلات الشرق أكثر من غلات مصر، كما كانت من أهم مراكز تصدير الكتان إلى بلاد المغرب. وتوثقت الصلات التجارية بين الإسكندرية وموانئ المغرب الأدنى، فيذكر المراكشي أنه كان فيما بين الإسكندرية وطرابلس حصون متقاربة جداً، فإذا ظهر في

---

١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠٠٤ م، جـ١، ص٣٢٧، سيدة اسماعيل كاشف: البحر الاحمر والفتح العربي لمصر، ندوة البحر الاحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، كلية الاداب، القاهرة١٩٨٠م، ص١٠٢، ١٠٤، حسنين محمد ربيع: البحر الاحمر في العصر الايوبي، ندوة البحر الاحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، جامعة عين شمس، كلية الادآب، القاهرة١٩٨٠م، ص١٠٥.

٢)ابن جبير: مصدر سابق، ص١٣.

٣) شوقي عبد القوى عثمان حبيب: التجارة بين مصر وأفريقيا ، ص٥١.

البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه، حتى ينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث أو أربع ساعات من الليل، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم، ولم يبطل هذا إلا حينما ثار المغرب على الفاطميين، ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو. ومع ما تحمله الرواية من بعض المبالغة، إلا أنها تبين سرعة وسهولة الاتصال بين الإسكندرية وموانئ إفريقية قبل هجرة بني هلال وتخريب هذه الحصون على أيديهم. ازدهرت أهمية هذا الطريق البحري، وخاصة بعد تحول طرق التجارة الدولية[١].

وترجع أهمية الإسكندرية بالإضافة لما سبق أنها تعتبر ملتقى التجار من كافة أقطار العالم المعروفة آنذاك ومنهم المغاربة، وقد ذكر بنيامين التطلي(٥٦١ – ٥٦٩ هـ/١١٦٥ – ١١٧٣م) ذلك أثناء رحلته وعدد جنسيات التجار الأجانب التي تصل إلى الإسكندرية ومنها تجار المغرب الأدنى، فيقول: " وإسكندريه بلدة تجارية فيها أسواق لجميع الأمم. يؤمها التجار من الممالك النصرانية كافة من البندقية والأنبرذية...وعدوة الغرب وإفريقية وجزيرة العرب ونواحي الهند وزويلة والحبشة ولبسة واليمن والعراق والشام واليونان المعروفين بالروم والترك "[٢].

ولدينا عدة شهادات حول كثافة العلاقات التجارية، لاسيما البحرية منها بين بلاد المغرب الأدنى ومدينة الإسكندرية خاصة بعد هجرة بني هلال لبلاد المغرب. فمثلاً تذكر رسالة من عبد الله بن خرسان حاكم تونس إلى حكومة مدينة بيزة، أن

---

١) البكري: مصدر سابق، ص٤٣٢، حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص٩٩، ١٠٠، مصطفى محمد الحناوي: مرجع سابق، ص٢٣٥ .

٢) رحلة بنيامين التطيلي: ص٣٥٨، ٣٥٩، جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة١٩٩٦م، ص٧٢، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والايوبيين، مطبعة العربي للنشر، القاهرة د.ت، ص٢٨٩.

obeikan.com

سفينة كانت قادمة من الاسكندرية إلى تونس كانت محملة بشتى أنواع البضائع، أبرزها العبيد باعت واشترت ما تريده من البضائع بميناء تونس[١].

وتعد مدينتي (تنيس ودمياط) مركزيين مهميين في تجارة البحر المتوسط عامة والمغرب الأدنى على وجه الخصوص، فمدينة تنيس كانت ترد إليها وتصدر منها تجارة شرق البحر المتوسط، ويصف المقدسي(ت ٣٩٠هـ/١٠٠٠م) تنيس: "بأنها بغداد الصغرى وجبل الذهب ومتجر الشرق والغرب"[٢]. وكانت تنيس ترتبط بعلاقات تجارية مباشرة مع بلاد المغرب، حيث كانت تصدر للمغرب أقمشة ذات نوعية خاصة تسمى (قماش البوقلمون)، وذلك عن طريق البحر فكل النشاط التجاري لهذه المدينة كان مرتبطاً بالبحر حيث يرسوا في مينائها مئات السفن[٣]. أما دمياط فتُعد قاعدة من القواعد البحرية الهامة لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقي للنيل من جهة أخرى، وقد أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط[٤]. وكانت ترسو بها السفن القادمة من المغرب بحذاء الساحل الشمالي لافريقيا، كما كانت ترتبط بحرياً بثغور الشام وعلى الأخص مدينة صيدا[٥].

---

١) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خراسان إلى حكومة بيزة، ص١-٦، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٥-٢٨٨.

٢) أحسن التقاسيم: ص٢٠١، حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في تاريخ مصر الاسلامية، ص٢٨٤، ٢٨٥.

٣) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص٩٢، ٩٤.

٤)المقدسي:مصدر سابق، ص٢٠٢،محمد عبد المنعم الجمل:الحضارة الإسلامية،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية٢٠٠٤م، ص٥٦.

٥)البكري: مصدر سابق، ص٨٦، السيد عبد العزيز سالم، احمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية، بيروت١٩٧٢م، ص٤٦، ٤٧.

obeikan.com

وكانت مدينة (الفرما)– بالقرب من بورسعيد الحالية– مجمع الطرق حسنة الأسواق وحولها مصايد السمك الجيد، وكانت التجارات الواردة من الغرب إلى الشرق تأتي الفرما حيث تحمل منها علي ظهور الدواب إلى القلزم، ثم تحمل في السفن في البحر الأحمر إلى الحجاز واليمن والسند والهند والصين. وقد كانت عرب القيسية يقومون بنقل البضائع والطعام إلي القلزم منذ جاء بهم ابن الحبحاب إلى مصر عام ١٠٩هـ/٧٢٧م[١]. أما مدينة القلزم– السويس حالياً– فيبدو أنها كانت قليلة الأهمية في النشاط التجاري البحري خلال تلك الفترة لأنها تعرضت للتخريب على أيدي المهاجرين من القبائل العربية[٢].

أما مدينة (أيلة) وهي العقبة الحالية فيذكر المقريزي، أنها مدينة علي شاطئ البحر فيما بين مصر ومكة وأنها أول الحجاز، وازدهرت بها التجارة وكانت أسواقها عامرة، ويذكر أن أهلها أخلاط من الناس، وهو أمر شائع في المدن التجارية التي تأتي إليها أو تمر بها التجارات العالمية[٣] . خاصة وأنها كانت مركز لتجمع حجاج شمال أفريقيا ومصر والشام[٤].

وكانت الظروف الاقتصادية والسياسية التي شهدتها مصر منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي عاملاً حاسماً في أن تصبح موانئ مصر الجنوبية على البحر الأحمر محطة تجارة الشرق، إذ أدت الشدة المستنصرية في خلافة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ – ٤٨٧هـ/١٠٣٥– ١٠٩٤م) إلى خراب الدلتا

١) المقدسي: مصدر سابق، ص ١٩٥، حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في تاريخ مصر الاسلامية، ص٢٨٤، ٢٨٥، صبحي عبد المنعم محمد: مرجع سابق، ص٢٩٢، مصطفى محمد الحناوي: مرجع سابق، ص٢٢١.

٢) الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣٤٨.

٣) الحميري: مصدر سابق، ص٧٠، حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في تاريخ مصر الاسلامية، ص٢٨٥.

٤) أنور عبد العليم: مرجع سابق ، ص٦٩.

obeikan.com

وهجر قوافل التجار لطريق سيناء البري والقلزم البحري وزيادة الإقبال على الطريق النهري. ثم أدت الحروب الصليبية إلى توقف طريق سيناء والقلزم تماماً، وللمقريزي عبارة مهمة يقول فيها: "حجاج مصر أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة مصر من أعوام بضع وخمسين وأربعمائة الى أعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمي أيام الخليفة المنتصر بالله وانقطاع الحج في البر"[١].

ولعب ميناء (عيذاب) على الساحل المواجه لجدة دوراً هاماً في تجارة البحر الأحمر. وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو في عيذاب، وذلك لعمق وغزارة ميناء عيذاب وخلوه من الشعاب المرجانية التي تتعرض لها الملاحة في البحر الأحمر، وإزدادت أهمية ميناء عيذاب بإزدياد النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر الأيوبي، وشهد ابن جبير في رحلته إلى الأراضي الحجازية عام٥٧٩هـ/١١٨٣م بأن عيذاب: " من احفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ". وورد ذكر ميناء عيذاب كثيراً خاصة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي اذ كانت متاجر الشرق خاصة التوابل تأتي من عدن إلى عيذاب، حيث يدفع التجار المسلمون والذميون من رعايا المسلمين ضريبة الزكاة وضريبة واجب الذمة، ولم يكن مسموحاً لأي تاجر من المدن الايطالية أو من الهند أو الصين أن يبحر شمالاً من عدن. ومن عيذاب تحمل القوافل المتاجر

١) الخطط: جـ١، ص٥٦٦، ابن جبير: مصدر سابق، ص٤٤، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٤٠، ٤١.

obeikan.com

عن طريق الصحراء إلى مدينة قوص ومنها عبر النيل لتكمل طريقها لبلاد البحر المتوسط[١]. لاسيما المغرب الادنى.

وقد وصلت بضائع المغرب الأدنى إلى ميناء عيذاب، كما يدل على ذلك بعض المقاطع من وثائق الجنيزة من عيذاب عام٤٩٣هـ/١١٠٠م التي أشارت إلى وصول أحد التجار الأندلسيين يحمل بضائع تجارية من المهدية[٢]. وقد وصل التجار المغاربة خاصة اليهود منهم إلى ميناء عيذاب وكان نقطة التقاء تجار الشمال بتجارة الشرق الأقصى ومركز للإستراحة والبيع والشراء[٣].

أما باقي مراكز البحر الأحمر فهناك مدينة (جدة) تبعد عن مكة المكرمة أربعون ميلاً، وأهلها مياسير ولهم موسم قبل وقت الحج مشهور تنفق فيه البضائع المجلوبة، وكانت محط السفن من الهند وعدن واليمن وعيذاب والقلزم وغيرها ، لذلك كان لها دور كبير في تجارة عريضة مع الموانئ العالمية في حوض المتوسط وعدن[٤].

---

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٤٥، الحميري: مصدر سابق، ص١٩، ٣٢، ٤٢٥، ٤٢٤، ٣٣، حسنين محمد ربيع: مرجع سابق، ص١١٧، ١١٨، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٤٢، ٤٣.

٢) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٥٦.

٣) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ترجمها عن العبرية المؤرخ جواتين، ص ٤٥٦، ;Goitein. S.D, Published in ,f. ١٥ , ١٧ J ٨ TS NO, Portrait of a Medieval India Trader: Three Letters from the Cairo Geniza, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. ٥٠, No.٣ -Goitein.S.D; Portrait of a Medieval India Trader: Three Letters from the Cairo Geniza, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. ٥٠, No.٣ , pp٤٥٠ – ٤٥٤.

٤) الحميري: مصدر سابق، ص١٥٧، عبد الكريم كريم: بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، عدد٥ شتاء ١٩٩٨م، ص٢٦ ، صبحى عبد المنعم محمد: مرجع سابق، ص٢٩٤.

obeikan.com

وتذكر وثائق الجنيزة – على سبيل المثال – أن التجار القادمين من بلاد الأندلس أو المغرب اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منتجات بلادهم في مدن مصر والشام، ولكن إذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحاً أو سوقاً تجارية لبضائعهم، اتجهوا بمتاجرهم إلى ميناء جدة حيث وجدوا سوقاً رائجة لتجارتهم[١].

وكان لجزر دهلك[٢] نصيب كبير من النشاط التجاري البحري في البحر الأحمر بحكم موقعها الجغرافي؛ حيث تقع بين ميناء عيذاب وزيلع في الجنوب، وميناء مصوع في الغرب وموانئ الحجاز واليمن التي تقع في الشرق والجنوب الشرقي. لذلك تنوعت الصلات التجارية لدهلك، وهذا ما أكدته بعض شواهد القبور التي عثر عليها بدهلك حيث ينتسب أصحابها إلى مدن العراق وفارس والمغرب والأندلس، فمكانة هذه الجزر التجارية هي التي جذبت هؤلاء التجار للقدوم ثم الاستقرار بها[٣].

وتوجد أدلة على النشاط التجاري لدهلك مع الغرب الإسلامي عامة من هذه الأدلة العثور على رسالة لجوزيف اللبيدي[٤]في جنيزة القاهرة أُرسلت من دهلك إلى طرابلس بليبيا يرجع تاريخها إلى٤٩٠هـ/١٠٩٧– ١٠٩٨م. وتعرض هذه الرسالة

---

١) حسنين محمد ربيع: مرجع سابق، ص١٢٠.

Goitein.S.D ; Med , ١ , p٢١٤.

٢) جزر دهلك: أرخبيل يضم عددا كبيراً من الجزر يبلغ مائتي جزيرة، يقع في الجزء الجنوبي الغربي من البحر الأحمر، قبالة ميناء مصوع على بعد ستين ميلاً شرقاً، انظر: حسين سيد عبد الله مراد: تاريخ دهلك وحضارتها في القرون الستة الأولى من الهجرة من خلال شواهد القبور، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، القاهرة٢٠٠٨ م، ص٣.

٣) حسين سيد عبد الله مراد: المرجع السابق، ص٤٦.

٤) اللبيدي: نسبة لمدينة قديمة بالقرب من طرابلس الغرب، فيها صناعات وسوق عامرة، انظر الحميري: مصدر سابق ، ص٥٠٨.

obeikan.com

وصفاً للنشاط التجاري لجوزيف اللبيدي، الذي توقف في دهلك خلال رحلته من القاهرة إلى الهند، وقد خرج هذا التاجر من الفسطاط ثم اتجه إلى أخميم بصعيد مصر ومنها إلى قوص ثم عبر الصحراء إلى عيذاب ومن هذا الميناء أبحر مباشرة إلى دهلك وفي هذه الجزر وجد الأقمشة بأسعار جيدة فباع الأقمشة التي معه. مما سبق يتضح أن دهلك كانت منطقة عبور بين مصر وميناءها على البحر الأحمر ميناء عيذاب إلى الهند، في الوقت نفسه كانت دهلك سوقاً نشطة للمبادلات التجارية[١].

ز- مراكز النشاط التجاري البحري على طريق الشرق الأقصى:

كانت تجارة الشرق الاقصى بمثابة العمود الفقري لاقتصاد العالم الإسلامي، حيث انعشت هذه التجارة تجارة المرور العالمية وعززت قيام طبقة التجار الغنية، وخلقت روابط قوية ومثمرة بين أقطار العالم الإسلامي وأقطار الشرق الأقصى من ناحية وبينها وبين بلاد البحر المتوسط من ناحية أخري[٢].

وقد أشارت العديد من المصادر إلى إمتداد النشاط التجاري البحري في العصر الإسلامي من البحر المتوسط إلى الشرق الأقصى، مثل فتوي المازري(المتوفي عام٥٣٦هـ/١١٤١م)، والتي ذكرت بعض البضائع القادمة من الشرق الأقصى إلى بلاد البحر المتوسط ودخلت في نطاق النشاط التجاري للمغرب الأدنى[٣]، ومنذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كانت أكثر من٩٠٪ من البضائع الواردة من الهند تُشتري مقابل بضائع إفريقية ومصرية و١٠٪ فحسب

---

١) حسين سيد عبد الله مراد: مرجع سابق، ص٤٩.

٢) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧, André Wink ; Op,Cit, p٤٣٦, جواتين: مرجع سابق ، ص٢٥١ – ٢٥٣.

٣) المازري: مصدر سابق، ص٢٨١– ٢٨٣، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٨.

مقابل الذهب، كما إن مدن وموانئ العديد من بلاد المحيط الهندي مثل الهند وسيلان كانت تعج بالبضائع الواردة من بلاد المغرب عامة، وخاصة من مدن المغرب الأدنى مثل القيروان والمهدية والأربس ونفوسة[١]. كما أن هناك اشارات مصدرية عامة تشير إلى أن بلاد الشرق الأقصى كانت ترتبط بعلاقات تجارية قوية مع جميع الأمصار، وبالطبع هذا الكلام ينطبق على بلاد المغرب لاسيما المغرب الأدنى ، فيذكر الإدريسي مثلاً عند وصفة لإحدى المدن الصينية التي سماها (سوسة الصين): " أموال أهلها كثيرة وتجاراتهم مباركة موفورة وقراضهم مفترق في الآفاق ومتصل بكل الأمصار "[٢].

كما كانت مقصداً للتجار المسلمون بشكل عام ومنهم المغاربة[٣]. تذكر بعض المصادر وجود أسماء لعائلات من أصل مغربي كانت تعمل في تجارة الهند، كما انتقل تجار من مدن مغربية معروفة نحو مصر ومنها نحو الهند وخاصة من تونس والمهدية والقيروان وهؤلاء التجار كانوا يكابدون مشاق الرحلة نحو الهند وفي بعض الأحيان يسافرون إليها أكثر من مرة، وتشير وثائق الجنيزة إلى أن موانئ البحر الأحمر والجزيرة العربية والهند كانت بها أعداد كبيرة من تجار المغرب الذين قدموا إليها من أقاليمها ومدنها المختلفة مثل برقة وطرابلس وجبل نفوسة والقيروان والمهدية وجربة ..إلخ[٤].

---

١) الهادي روجي إدريس: المرجع السابق: جـ٢، ص٢٨٨.
Goitein.S. D: Jews and Arabs: Their Contacts Throug The Age , New York , Schocken , ١٩٥٥, ١٠٧ – ١١٩.

٢) نزهة المشتاق: جـ١، ص٢١٠.

٣) المصدر السابق: جـ١، ص١٨٨، ٢٠١.

٤) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر ، ص ٤٥٤، ٤٥٥، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ص ٤٥٥،

obeikan.com

ورغم هذا الإرتباط الوثيق بين تجارة البحر المتوسط وتجارة الشرق الأقصى، لم يوجد بين هاتين الوحدتين الجغرافيتين أي تبادل مباشر، ولكن كانت مصر تعمل بينهما كوسيط. فمصر كانت بمثابة الواسطة بين تيارين مستقلين من المبادلات التجارية ولكنهما مرتبطين بفضلها ارتباطاً وثيقاً[١].

وكانت مدينة (عدن) أو مركز تجاري مشهور على طريق الممتد عبر المحيط الهندي إلى الشرق الأقصى، حيث اشتهرت (عدن) بأنها مدينة تجارية رئيسية في فترة الدراسة، وذلك لموقعها عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي ولها مرسي عظيم، وهي بداية الطريق البحري إلى الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغيرها، وقد اشتهر أسمها لأنها مرسى(البحرين)[٢]. فكانت عدن الميناء الرئيسي الذي تنهي فيه السفن العاملة في المحيط الهندي رحلاتها الموسمية حيث تفرغ شحناتها، وتقفل راجعة بمنتجات الشرق الأدنى وأوروبا، ثم تقوم السفن الاسلامية بنقل بضائع الهند والشرق الأقصى منها عبر البحر الأحمر إلى بلاد حوض البحر المتوسط ومنها بلاد المغرب الأدنى. لذلك كانت محطة مهمة في طريق التجار

٤٥٦، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص٤٥٦، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨٥،

Goitein. S.D; Portrait of a Medieval India Trader, pp٤٥٠ – ٤٥٤.

١) المازري: مصدر سابق، ص٢٨١ – ٢٨٣، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٨٨،

Goitein. S.D: From the Mediterranean to India: Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries, Speculum, Vol. ٢٩, No. ٢, Part ١ ,Apr., ١٩٥٤, p١٨٥- ١٨٧.

٢) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return from India, pp٦٨١-٦٨٧,

الحميري: مصدر سابق، ص٤٠٨، حمدي عبد المنعم محمد حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية٢٠٠٢م، ص٣٥.

Obeikan.com

المغاربة لاسيما اليهود منهم وكثرة الرسائل المُرسلة منها للتجار مغاربة يهود أكبر دليل على ذلك(١).

وتظهر أهمية عدن كميناء رئيسي يدخل في نطاق النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة من خلال نص للمقدسي يتحدث فيه عن أهمية عدن فيقول: "وعدن بلد جليل عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات"(٢). ويبدو أنه يقصد أن عدن كانت مقصدا لتجار بلاد المغرب يحصلون منها على كنوز الشرق ويبيعون فيها بضائعهم بأغلى الأثمان.

كما كان ميناء (مدينة ظفار)(٣) من الموانئ المعروفة للتجار والمسافرين في إتجاه موانئ الشرق الأقصى؛ ويعتقد أن هذا الميناء عرف قدوم التجار المغاربة للتجارة أو كمحطة في طريقهم للهند والصين، ومما يدل على ذلك أن ابن بطوطة وهو رحالة

---

١) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ترجمها عن العبرية المؤرخ جواتين، NO TS ١٠ J ١٦ , f . ١, Published in Goitein.S.D ; Portrait of a Medieval India Trader: Three Letters from the Cairo Geniza, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. ٥٠, No.٣ ، ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ترجمها عن العبرية المؤرخ جواتين ، NO TS AS ١٥٦ . ٢٣٧ , Published in Goitein.S.D ; Portrait of a Medieval India Trader: Three Letters from the Cairo Geniza, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. ٥٠, No.٣، ص ٤٥٥، ٤٥٦، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص١٨٩، ١٩٠، حسنين محمد ربيع: مرجع سابق، ص١١٢ – ١١٤،

- Goitein. S.D ; OpCit , pp٤٥٠ – ٤٥٤ .

٢) أحسن التقاسيم: ص٨٥.

٣) ظفار: بفتح الظاء والفاء، هي مدينة تقع في اقليم ظفار الحالي في سلطنة عمان، انظر: ابن بطوطة: مصدر سابق، ١٢٥.

obeikan.com

جاء في فترة أعقبت فترة بحثنا مباشراً، يذكر أن أهل ظفار كانوا أكثر الناس تشابهاً مع سكان بلاد المغرب في العادات والتقاليد وحتى بالأسماء: " ومن الغرائب أن أهل هذه المدينة – يقصد مدينة ظفار– أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم....كان له جوار مسميات بأسماء خدم المغرب "[١].

وكان الساحل الغربي للهند أو ساحل (الملبار)، والذي كان ملتقى مهماً لتجار المحيط الهندي المحط الرئيس للسفن القادمة من الغرب، حيث كانت تستطيع الحصول على أغلب احتياجاتها دون التوجه إلى الساحل الشرقي للهند، اذ كان هذا الساحل بمثابة الواجهة التي تعرض فيها منتجات الداخل الغزيرة، خصوصاً من التوابل لتجار الغرب، كذلك كانت تستقبل منتجات الغرب التي يحملها التجار لبيعها هناك، ولذلك ازدحم الساحل بالتجار من مختلف بقاع المحيط. وقد وجدت العديد من الموانئ الرئيسية على الساحل الغربي للهند المواجه لبلاد العرب وأفريقيا والتجارة القادمة من البحر الأحمر. مثل ميناء كجرات الذي يقع شمال غرب الهند مواجهاً لخليج عمان والساحل العربي، كذلك موانئ كاليكوت وكولم مالي[٢]، ولعل الميناء الأخير هو نفسه الذي ذكر في وثائق الجنيزة باسم ميناء قلوم أو كلووم[٣].

---

١) رحلة ابن بطوطة: ص٢٦١.

٢) رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ص٤٥٥، ٤٥٦، ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٥٥٣، ٥٥٧ – ٥٧٠، شوقي عبد القوي عثمان: مرجع سابق، ص١٩٠،١٨٧، ١٩١،

ومدينة كاليكوت: يسميها ابن بطوطة قالقوط، أما كولم مالي: فهي ميناء في جنوب الملبار وتعرف اليوم باسم كويلون (Quilon)، انظر: ابن بطوطه: مصدر سابق، ص٥٥٩، شوقي عبد القوي عثمان : مرجع سابق، ص٩١.

٣) رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر ، ص ٤٥٤، ٤٥٥، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان

obeikan.com

أما الساحل الشرقي للهند أو ساحل كروماندل فوجهته للشرق الأقصى، وكان يسمى عند الرحالة المغاربة (المعبر)، وقصدته سفن بلاد غرب المحيط أيضاً، وإن لم تكن بالكثرة التي عرفها الساحل الغربي للهند. وقد اشتهر ساحل كروماندل بقيام أرق واتقن صناعة للمنسوجات القطنية، مما أُطلق عليه الأوربيون اسم العبك[١].

كما كانت السفن التجارية تواصل رحلتها عبر مضيق ملاكة– المحصور بين كل من جزيرة سومطرة وشبه جزيرة الملايو– إلى الصين تلك البلاد التي تقع قرب نهاية المعمورة المعروفة في ذلك الوقت، والتي اشتهرت في بقاع الأرض انذاك بدقة صناعاتها وتنوعها. ومن أهم موانئ الصين في تلك الفترة (ميناء الزيتون) والذي كان به حركة تجارية ضخمة، وكان الفلفل الذي يصدر منه يصل حتى ميناء الإسكندرية، ومنه لباقي موانئ البحر المتوسط، كما كان البورسلين الذي لا مثيل له أو الفخار الصيني يصدر من هذا الميناء حتى يصل إلى بلاد المغرب عامه والمغرب الأدنى على وجه الخصوص[٢].

كما كان شرق المحيط الهندي يحتوي على جزر مهمة كانت معروفة في تلك الفترة كمراكز للتجارة العالمية في تلك المنطقة، ومن أهم تلك الجزر جزيرة سرنديب التي تقع جنوب شرق ساحل الهند، وكذلك جزيرتي جاوة وسومطرة في أقصى الشرق[٣]. إلا أننا لا يمكننا الجزم بطبيعة نشاط تلك الجزر داخل نطاق بحثنا، إلا أنه في الإطار العام فقد عملت تلك الجزر كمحطات تزويد بالمؤن ومراكز للتجارة

بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ص ٤٥٥، ٤٥٦، Goitein. S.D ; Portrait of a Medieval India Trader, pp٤٥٠ – ٤٥٤

١) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٥٩٢، ٥٩٣، ٦٠١ – ٦٠٣.

٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص٦٢٨، ٦٣٠، ٦٣٣.

٣) المصدر السابق: ص٥٩٣، ٥٩٤، ٦١٧، ٦٢٣، شوقي عبد القوي عثمان: مرجع سابق،ص ١٩٣، ١٩٤.

Oberkan.com

عرفها التجار المسلمون عامة، ومن غير المستبعد أن يكون المغاربة عرفوها حتى ولو عن طريق بعض البضائع التي قدمت من تلك الجهات.

من خلال ما سبق يتضح أن نطاق النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى تخطى جغرافية تلك المنطقة نفسها، ليشمل مناطق عديدة عنه نظراً لطبيعة النشاط التجاري البحري نفسه الذي لا يعترف بحدود معينه أو إقليم جغرافي بعينه. فقد شمل نطاق ذلك النشاط العديد من المراكز التجارية البحرية في العديد من مناطق العالم المعروفة آنذاك، ومنها المراكز التجارية بالمغربيين الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس وكذلك البلاد الأفرنجية وجزر البحر المتوسط، بالاضافة للمراكز التجارية البحرية على ساحل بلاد الشام في شرق البحر المتوسط، وكذلك المراكز التجارية في مصر والبحر الأحمر وعلى طول الطريق إلى الشرق الأقصى. كل تلك المناطق احتوت على العديد من المراكز التجارية البحرية التي دخلت في نطاق النشاط التجاري البحري لمنطقة المغرب الأدنى .

ويتضح مما سبق أن تلك المراكز كانت ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر مع نظيراتها في المغرب الأدنى بطرق ملاحية، وبالطبع كان هذا سبباً في التبادل التجاري بين الطرفين، كما أن هذه المراكز ساهمت في دعم التجارة البحرية لبلاد المغرب الأدنى بما تحتاجه من سلع اشتهرت بإنتاجها في تلك الفترة، أو سبباً في تصريف بضائع اشتهرت بها بلاد المغرب الأدنى. أو أن تلك المراكز جاء منها تجار للتجارة بالمغرب الأدنى، أو رحل إليها تجار من المغرب الأدنى للتجارة بها ضمن النشاط التجاري البحري المعروف في تلك الفترة .

ثانياً - مؤسسات النشاط التجاري البحري:

obeikan.com

كان معظم التجار الدوليين لا يغامرون بتجارتهم خلف المدن الساحلية، وعوضاً عن ذلك كانوا يبيعون حمولاتهم أو يعهدون بها إلى شركاء محليين[١]. لذلك كان للمؤسسات التجارية والخدمية أهمية قصوى في هذا المجال.

أ – الموانئ:

احتوت الموانئ التجارية البحرية على عدة منشآت مهمة في مجال النشاط التجاري البحري. حيث احتوت على المراسي كأساس لأي ميناء، وكان إستخدام الشواطئ المتوسطية لبلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة بشكل مستمر قبل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ساعد على تطوير مراسي تلك السواحل باتخاذ الخلجان والجبال والجزر وأودية الأنهار ستاراً من الرياح، أو إتخاذ مرسيين: واحد للسفن الكبار والآخر للسفن الصغار أو حفر الموانئ[٢]. ولأهمية المراسي الكبيرة في النشاط التجاري كانت الدول التي قامت ببلاد المغرب الأدنى تحمي أرصفة ومراسي المدن من التعديات، فكان هناك تحريم من أن يُباع منها شيء أو يُبنى فيها بنيان فإن ذلك الموضع عين البلد وموضع إخراج الفوائد مما يخرجه التجار ومأوى الغرباء وموضع إصلاح السفن فلا يكون فيها ملك لأحد إلا للحاكم وحده[٣].

وحوت بعض المدن مراسي اتسمت بأنها مسطحه وتقع على البحر مباشرةً وأغلبها كانت هادئة المياه والرسو، فقد ذكر الإدريسي أن مرسى مدينة قابس

---

١) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٨٢.

٢) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٦٩، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٣١٧.

٣)ابن عبدون: رسالة في الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال ضمن " ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب "، مطبعة المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٥٥م، ص٢٦، ٢٧.

obeikan.com

الأساسي كان مرسى مسطح لا يحمي السفن الراسية من الرياح[١]. كما كان لعنابة مرسى صغير غير محمي من رياح الشمال[٢]. وكانت لمدينة جيجل مرسيان أحداهما جهة الجنوب وهو مرسى وعر الدخول اليه صعب لا يدخل إلا بدليل، وآخر جهة الشمال ويُسمى مرسى الشعراء فهو ساكن الحركة كالحوض حسن الإرساء به لكنه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره[٣]. كما كان لصفاقس مرسى حسن راكد الماء، حيث ارتبطت حركة السفن وإبحارها به بحركة المد والجزر[٤]. أما مرسى مدينة طرابلس فهو أكثر المراسي تنظيماً وهدوءاً ومن أكثرها حسناً واتساعاً، حيث كانت المراكب تقترب من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في مربطها[٥]. وربما يرجع ذلك إلى أن من خصائصه الطبيعية كما قال البكري في كتابه أنه مأمون من أكثر الرياح، مما كان ييسر على السفن الرسو في مياهه[٦].

أما مرسى مدينة المهدية فقد حُفر في الصخر، ويمتد ٢٦ متراً علي ٥٧ متر مع ممر يبلغ عرضه حوالي ١٥متراً، وهذا الميناء يتسع لثلاثين سفينة، وعلى طرفي المرفأ برجان عليهما سلسلة إذا أريد إدخال سفينة أرسل أحد طرفي السلسلة حتي تدخل السفينة ثم مدت، والهدف من ذلك هو منع مراكب الروم من الدخول إليها؛ فهي حصن منيع أكثرها في البحر والجزء الذي يقع في البر له أربعة أبراج، على كل برج أربعين رجلاً لحمايتها، وقد وصفها ابن سعيد بقوله "مستطيلة في البحر وهو دائر بها

---

١) الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٠، الحميري: مصدر سابق، ص٤٥١.
٢) مارمول كاربخال: مصدر سابق، جـ٣، ص٨.
٣) الادريسي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٩.
٤) التيجاني: مصدر سابق، ص٦٨.
٥) المصدر السابق: ص٢٤٦.
٦)البكري: مصدر سابق، ص٧، محمد حمام: مدينة طرابلس أو المدينة البيضاء في بداية القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ(حسب رحلة التجاني)، مجلة التاريخ العربي ، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد٢٣ ربيع ٢٠٠٢م، ص٥، ٦.

obeikan.com

في غير مكان واحد ضيق[١]. أما مرسى مدينة سوسة فعليه سور منيع من الصخر، وله ثمانية أبواب أحدها كبير جداً منه تدخل السفن وتغادر[٢].

كما اشتهرت مراسي مدن أخرى بصعوبة الرسو فيها، مثل مرسى مدينة بونة الذي كان يُسمى مرسى الأزقاق وهو داخل جوف يُسمى جوف الأزقاق أيضاً، حيث كانت السفن القادمة إليه أو الراحلة منه تجد صعوبة في الاستقرار فيه وقد تؤدي ظروف هذا المرسى الصعبة إلى إعطاب تلك السفن[٣].

إلا أن هناك صفة مميزة لبعض مراسي المدن الأخرى وهي أن المرسى عباره عن خلجان فرعية تشبه الأنهار، وهذا ما دعا المصادر لتسميتها بالأنهار عند الحديث عن تلك الخلجان، فمثلاً ذكر البكري أن مدينة طبرق يوجد بها "نهر كبير تدخله السفن الكبار وتخرج في بحر طبرقة"[٤]. كما كان لمدينة قابس مرسى فرعي عبارة عن خليج صغير يدخله المد والجزر، وترسي به المراكب الصغار، وليس بكثير السعة، وإنما يطلع المد للإرساء نحواً من رمية سهم[٥].

ومرسى ميناء تونس يسمى (رادس)، ونتيجة لأن مدينة تونس ليست على حافة البحر مباشراً، لذا يصلها بالمرسى قناة مثل النهر[٦]. وتسمى تلك القناة بقناة حلق الوادي[٧]. وكانت السفن الكبيرة لا تستطيع الوصول إلى أرصفة الميناء الأساسية،

---

١) البكري: مصدر سابق، ص٣٠، التيجاني: المصدر السابق ، ص٣٢٢، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص ٧٣، ٧٢.

٢) البكري: المصدر السابق، ص٣٤، مجهول: الاستبصار، ص١١٨، عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص٧٣.

٣) مجهول: الاستبصار، ص١٢٧.

٤) البكري: مصدر سابق، ص٥٧، الحميري: مصدر سابق، ص٣٨٦.

٥) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٨٠، الحميري: مصدر سابق، ص٤٥١.

٦) عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٣.

٧) الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٩٩.

obeikan.com

فترسوا بعيداً عنها على مرسى رادس هذا ثم تُنقل البضائع منها وإليها عن طريق قوارب صغيرة، حيث يتم تفريغها في موضع اسمه "وقور"، ثم تُنقل البضائع إلى الميناء بالزوارق. وكانت تتحكم في دخول الميناء سلسلة ممدودة بين سور مبني بالحجارة في الناحية الشمالية وبين خزان مبني بالحجارة في الضفة الجنوبية يقال له قصر السلسلة. وقد أشار البكري إلى وجود قصر متهدم في جزيرة شكلة (شكلي في الوقت الحاضر)[١].

وهناك مراسي كانت وظيفتها تقديم الدعم والميرة للسفن، مثل مرسى مدينة اقليبيا الواقعة بأقصى جزيرة شريك قبيل مدينة تونس، فقد كانت وظيفة هذا المرسى تقديم الميرة للسفن[٢]. وهنا يجب ان نذكر أن المغرب كان متفوقا خلال عصر الموحدين على الإمارات الأوروبية فيما يتعلق بالتعامل مع السفن والمراكب الغارقة بعرض سواحله. فقد فرضت السلطة الموحدية على رعاياها تقديم المساعدات الضرورية للمراكب التي تعاني من صعوبات داخل البحر، أو مثيلاتها التي يرمى بها البحر على الشواطئ، كما فرضت عليهم احترام الركاب الناجين ومساعدتهم وحماية بضائعهم. إن هذه الإجراءات تعد سبقاً حضارياً ومساهمة بارزة في إرساء دعائم قانون بحري جنيني لم يطبق بأوروبا إلا في مرحلة متأخرة من العصر الحديث[٣].

ونلاحظ أن مراسي المدن الرئيسية بالمغرب الأدنى والتي سبق ان عرضناها في بداية الفصل، كان يوجد فيما بين بعضها مراسي صغيرة فرعية كانت تدخل في نطاق

---

١) البكري: مصدر سابق، ص٣٩، الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص١١١، ١١٢، الهادي روجي ادريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٣٥.

٢) الحميري: مصدر سابق، ص٨٢،٨١.

٣)الحسين بولقطيب: المغرب والبحر خلال العصرالوسيط، رابط البحث على شبكة الانترنت http://www.aljabriabed.net/n٤٤_٠٧bulaktib.htm ، ص ٦

Mas Latrie; RELATIONS ET COMMERC DE L'AFRIQUE SEPTENTRION AVEC LES NATIONS CHRÉTIENNES AU MOYEN AGE , LIBRAIRIE DE FIRMIN , PARIS١٨٨٦, P ١٨٠.

obeikan.com

النشاط التجاري البحري ايضاً، ومن ذلك أنه كان بين مرسيي مدينة طبرقة ومدينة قرطاجنة توجد مراسي فرعية صغيرة مثل مرسى ابن خليفة ومرسى الروم ومرسى رأس الجبل وهو مشتى مأمون كذلك مرسى الثنية[١]. كذلك كان بين مرسى مدينتي تونس وسوسة وجد عدد من المراسي الصغيرة الفرعية هي مرسى رباط الحمة ومرسى جون النخلة ثم مرسى جون الملاّحة ثم مرسى مدينة اقليبية، كذلك مرسى المدبون وهو بحر صعب كثيراً ما تنعطف فيه السفن، كذلك مرسى مدينة ريهان ثم مرسى قصر ابن عمر الاغلبي[٢].

ومن المراسي الأجنبية التي رحل اليها المغاربة مرسى مدينة مسينة بجزيرة صقلية وهو من أعجب مراسي البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتُنصب منها إلى البر خشبة يُتصرف عليها، فالحمال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في وسقها إلا البعيدة قليلاً[٣].

كما كانت مراسي موانئ المدن المصرية والشامية لا تختلف كثيراً عن مثيلتها ببلاد المغرب الأدنى، حيث جمعت كل تلك المدن سمات موحده وذلك من حيث وجود سور يحيط بالمناطق المكشوفة من المدينة للبحر واقتصار الفتحة على المراسي التي ترسو فيها السفن، كذلك وجود برجين موصلان بسلسلة عظيمة من الوسط تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج، فلا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. وعلى ذلك الباب حُراس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم[٤]. كما

---

١)البكري: مصدر سابق، ص٨٣.

٢) المصدر السابق: ص٨٤.

٣) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٩٦، ٢٩٧.

٤) البكري: المصدر السابق، ص٣٠، ٣٩، بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص٢٣٨، ناصر خسرو: مصدر سابق، ص٦١، ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٧٧، ٢٧٨، المقريزي: السلوك، جـ١، ص١٨٦، علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في شرق البحر المتوسط من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري/السابع حتى القرن العاشر الميلادي، ترجمة قاسم

obeikan.com

كانت موانئ البحر الاحمر تتميز بالاتساع والضخامة وانتظام العمل فيها طوال العام مثل مرسى مدينة جدة[١].

كما احتوت تلك الموانئ على منشآت أخرى مثل (دار الصناعة) وكانت في مدينة تونس دار لصناعة السفن كانت مغطاة تحيط بها سياج، حيث كانت تُستعمل كمصنع للسفن البحرية وكملجأ "لسفن وزوارق الحاكم[٢]؛ كما كانت بمدينة المهدية دار صنعة عجيبة، يخرج المركب معموراً منها من خلف سور[٣]. ويشير البكري إلى مساحة وشكل دار الصناعة في المهدية حيث كانت تتسع لأكثر من مائتي مركب وفيها قبوان كبيران طويلان لحماية المراكب والصناع أثناء الإنشاء من الشمس والمطر[٤]. وكان بمدينة سوسة أيضاً دار لصناعة السفن[٥]، كما كانت مدينة طرابلس تحتوي على دار لصناعة الأساطيل[٦]، كذلك كان يوجد بمدينة مرسى الخرز دار صناعة لإنشاء السفن والمراكب المختلفة الأنواع[٧].

عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولي١٩٩٧م ، ص٣٧.

١) العياشي: الرحلة العياشية(١٦٦١-١٦٦٣م)، تحقيق سعيد الفاضلي-سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ابو ظبي، الطبعة الاولي ٢٠٠٦م، جـ٢، ص١٥٤، عبد الكريم كريم: مرجع سابق، ص٢٧.

٢)البكري: مصدر سابق، ص٣٩، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٣٧٨، انظر صورة رقم (٢ – ب) يوضح دار صناعة السفن بإشبيلية بالأندلس ويرجع بنائها للقرن الثالث عشر الميلادي.

٣)ابن عذاري: البيان المغرب، جـ١، ص٢٠٧.

٤)المغرب: ص٣٠.

٥) المصدر السابق: ص٣٤.

٦) المصدر السابق: ص٨٥.

٧) الحميري: مصدر سابق، ص٥٣٨.

Obeikan.com

أما منشأة المنار فكانت تختص بإرشاد السفن عند دخولها تلك الموانئ، مثل منار مدينة سوسة والذي أُطلق عليه اسم (خلف الفتي)، كما وُجد في فترة البحث منار أغلبي اسمه (برج خديجة) في الميناء الصغير الذي يُسمي رأس قبودية أورصفة الواقع في الشريط الساحلي بين المهدية وصفاقس[١]. ولعل هذا المنار هو نفسه المنار الذي تحدث عنه التجاني عند نهاية وادي الرمل ووصفه بأنه فصوص من الحجارة المربعة الضخمة ينسب بناؤه لابن الأغلب، كما ذكر منار آخر منسوب لأبن الأغلب وهو منار قرطاجنة تونس الشهير[٢]. أما منار مدينة صفاقس فكان منار مفرط الارتفاع يرى من خلاله حتى مائة وستين درجة من البحر[٣] . كما كان منار مدينة قابس مناراً شاهقاً اشتهرت به المدينة حتى أن القادم من مصر يقول:

لا نوم لا نوم ولا فرارا حتى أرا قابس والمنارا[٤].

وتعددت منشآت إرشاد السفن مثل البيت الذي ذكره البكري عند حديثه عن جزيرة قرقنة التى تواجه مدينة صفاقس، فقد ذكر أن هناك بيت عالي يقع داخل المياه الضحلة بين تلك الجزيرة والشاطئ مهمة من يقوم عليه أنه إذا رأوا السفن الواردة من الإسكندرية والشام وبرقة اداروها إلى مواضع معلومة[٥]. كما كان بمدينة سوسه خلف سورها مبنى ضخم يُسمى (هيكل الفنطاس) وكان يُستخدم في إرشاد السفن خاصة القادمة من صقلية، وكان لهذا الهيكل أربعة ادراج يصعد من كل واحد منها إلى اعلاه، وهو هيكل واسع بين بابه الذى يدخل منه والثاني الذي يخرج منه مسافة طويلة[٦]. وكانت الجبال في بعض الأحيان دليل للسفن القادمة لموانئ المغرب

١)الهادي روجي ادريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٥٨.
٢) رحلة التجاني: ص٢٣.
٣)البكري: مصدر سابق، ص٢٠.
٤)المصدر السابق: ص١٧.
٥) المصدر السابق: ص٢٠.
٦)البكري: المصدر السابق، ص٣٦، الحميري: مصدر سابق، ص٣٣١.

obeikan.com

الأدنى، فمثلاً كان جبل زغوان وهو جبل شاهق، كان دليل يستدل به التجار والبحارة والمسافرين القادمين الى بلاد المغرب الأدني ولذلك سُمي "كلب الزقاق" لأنه يُرى على بعد مسيرة أيام عديدة من البحر(١).

ووجدت منشآت إرشاد السفن في المدن التجارية الأخرى ، مثل وجود منار الاسكندرية الشهير والذي ظل يعمل لإرشاد السفن حتى فترة البحث(٢). أما في المدن الأوربية خاصة المدن الايطالية، فقد إستُخدمت أبراج الكنائس وأجراسها لتبين للمبحرين قرب الوصول الى اليابسة. وفي بعض الأحيان كانت توقد نيران فوق تلك الأبراج وتُستخدم كمنارات(٣).

وقد يُشيد بعض القلاع لحماية الميناء التجاري من هجمات الأعداء من البحر، مثل رباط المحرس الذي بُنيا عند مدخل خليج قابس، لحراسة هذا الخليج من هجمات سفن العدو، ويقع هذا القصر على بعد نحو خمسين ميلاً من جزيرة جربة(٤).

كما كان فيما بين الاسكندرية وطرابلس حصون متقاربة جداً، فإذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه، حتي ينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث أو أربع ساعات من الليل، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم، ولم يبطل هذا إلا حينما ثار المغرب على الفاطميين، ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو(٥). وينسب التجاني كل القصور والقلاع السابقة الذكر لابن

---

١)البكري: المصدر السابق، ص٤٦، الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٩٤.

٢) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص٣٥٨، جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٦م، ص٧٢.

٣) هنري بيرين: تاريخ أوربّا فى العصور الوسطى (الحياة الاقتصادية والاجتماعية)، ترجمة عطية القوصي، الهيئة المصريه العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م ، ص٩٣.

٤)الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٩٣.

٥) حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص٩٩، ١٠٠.

obeikan.com

الأغلب، وظلت تلك القصور والمحارس حتى عصر التجاني ولم تتوقف عن اداء وظيفتها في حماية الشواطئ وارشاد السفن[١]. أما في الشرق الأقصى فيذكر الإدريسي أنه كان يوجد أمام أخوار الهند والصين ما سماه (أحناش) ووصفها بأنها كانت ملونة بألوان وصفات مختلفة، وكان أهل البحر يعلمونها ويميزونها ويستدلون على كل خور من تلك الأخوار بها، وتسمى تلك الأحناش باللسان الهندي (الميزرة)[٢]. ولعله يقصد بتلك الأحناش صخور بارزة في البحر أو ربما يقصد بها نوع من الشعاب المرجانية.

اذن احتوت المراكز التجارية البحرية على العديد من الموانئ الحيوية التي كانت أولى ما يتم التعامل معه خلال النشاط التجري البحري، وقد احتوت تلك الموانيء على مرافئ حيوية ذات أهمية كبيرة في ذلك المجال؛ وأهمها بالطبع دور الصناعة، والمراسي التي كانت تستخدم في استقبال السفن القادمة وتفريغ حمولتها أو شحنها بالبضائع المطلوبة. وقد تميزت تلك المراسي بهدوء المياة بها خاصة ببلاد المغرب الأدنى، كما تميزت بعض مراسي المغرب الأدنى بوجودها داخل خلجان أو تجويف لحمايتها من تقلبات البحر أو من الغزة الخارجي، كما تميزت شأنها شان باقي مراسي المراكز التجارية الأخرى بوجود برجين على جوانبها بينهما سلسلة ضخمة للتحكم في الداخل والخارج لتلك الموانئ من السفن . كما تميزت تلك الموانئ خاصة بالمغرب الأدنى بوجود المنارات ومباني لإرشاد السفن القادمة إليها، كما استُخدمت الجبال نفسها في ارشاد السفن في تلك الفترة.

ب – المؤسسات الإدارية:

احتوت المراكز التجارية البحرية خاصة ببلاد المغرب الأدنى على مؤسسات لإدارة وتسيير الأعمال التجارية بتلك المراكز، وتلك المؤسسات اختلف تسميتها

١) التجاني: مصدر سابق، ص٢٣.

٢) نزهة المشتاق: جا، ص٢٠٢.

obeikan.com

واختصاصها من عصر لأخر ومن فترة لأخرى. فقد كان علي رأس المؤسسات الإدارية التجارية في المراكز البحرية، ما يسمي بمؤسسة (الديوان) والتي كما يبدو أن "الديوان الموجود في حدود عام٥٤٣هـ/١١٤٨–١١٤٩م بمدينة تونس قرب باب البحر هو عينه مكتب الجمارك[١]. والذي كان يختص بطبيعة الأمور بتحصيل ضرائب الجمارك.

إلا أن العديد من الوثائق التي ترجع لفترة الموحدين تذكر ديوان البحر بشكل مباشر على أنه المؤسسة الأولى التي تُعنى بكافة أمور التجارة البحرية في المغرب الأدني وكان يتولاها (ناظر الديوان)، ومن مهام تلك المؤسسة تحديد الضرائب والأسعار ومتابعة مشاكل التجار، والمنازعات التي قد تنشب بينهم وبين نظرائهم الأجانب، كما أنها كانت تُعني بمراسلة التجار الاجانب لترغيبهم في القدوم للتجارة في بلاد المغرب الأدني؛ وكذلك اهتم القائمين عليها بمراسلة حكومات الدول الأجنبية لحل المشاكل العالقة بينهم والخاصة بالتجارة البحرية مثل قضية المسطحات، والراجح أن تلك المؤسسة كان يُعاد تحديد الموانئ التي تدخل تحت نفوذها من وقت لأخر، ففي بعض الفترات نجد أن الوثائق تذكر (ديوان إفريقية) وفي فترات أخري تذكر وثائق أخري (ديوان المهدية وتونس)، والراجح أن ذلك يرجع لقوة وامتداد النفوذ السياسي للدولة المسيطرة على المنطقة[٢].

---

١) ابن عذاري: البيان المغرب، جا، ص٣١٣ -٣١٤، الهادي روجي ادريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣٣.

٢) رسالة من عبد الرحمن بن ابي الطاهر الناظر بديوان افريقية الي حكومة بيزة، مؤرخة بـ٥٩٦ هـ ، حول قضية المسطحات، ص٢٣–٢٨، رسالة من يوسف بن محمد صاحب ديوان تونس والمهدية إلي أحد كبار تجار بيزة، حول أحد الاسري في قضية المسطحات، ص ٣١، ٣٢، رسالة من السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى حكومة بيشة، حول قضية المسطحات، نشرها Amari Michel في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم٩، ص٣٣، ٣٤.

obeikan.com

وفي العصر الموحدي تذكر لنا المصادر العربية مؤسسة تُسمي (إمارة البحر)، وكانت وظيفة تلك المؤسسة علي حسب ما ذكرت هذه المصادر أنها تُعني بأحوال التجارة البحرية والتجار الأجانب، وكانت الوظيفة الرئيسية الأولى التي كانت تتولاها تلك المؤسسة هي وظيفة رقابية، حيث كانت مهمتها تثقيف أو مصادرة أموال التجار الأجانب القادمين من خارج البلاد ، للإستعلام عن أصول تلك الأموال ومدى مطابقتها للوثائق الرسمية التي يمتلكها هؤلاء التجار(١).

أما في العصر الحفصي تعود المصادر لتذكر مؤسسة شبيه بمؤسسة (الديوانة) تُسمى (ديوان البحر)؛ وتعتبر هذه المؤسسة من الخطط المخزنية الرسمية والمهمة للدولة الحفصية وهي المؤسسة الأولي التي كانت تُعني بأمور التجارة البحرية والموانئ والتجار الأجانب، كما كانت من وظائفها الأساسية تحصيل الضرائب المفروضة على التجارة البحرية أو سداد ما على الدولة من ديون أو أموال لدول أو تجار أجانب، ويبدو أن مداخيل ديوان البحر كانت ضخمة جداً حتى أن من تولي إدارته من أصحاب النفوس الضعيفة كان يجمع منه ثروات ضخمة(٢). وقد كان ديوان البحر موجوداً في الميناء(٣).

ومن تلك المؤسسات ايضاً (دار المختص) ومن الراجح أن تكون دار المختص هذه والتي أشارت المصادر إلى وجودها بتونس من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي إلى القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، إلى جانب دار الإشراف، هي مقر إدارة المكوس وتحصيل ضرائب السوق بالعاصمة(٤).

---

١) ابن عذاري: البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص٨١،٨٢.

٢) الزركشي: مصدر سابق، ص٣٦.

UnTraité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis.pp٢٨٦ – ٢٩١,

٣) الزركشي : المصدر السابق، ص٣٦، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١ ، ص٣٧٨.

٤) الزركشي: المصدر السابق، ص٢٩، ٣٦، ١٥٣، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٦٨.

obeikan.com

إلا أننا يجب أن نحطاط في الحكم علي أن المؤسسات السابقة الذكر (الديوانة) (إمارة البحر) (ديوان البحر) (دار المختص) هي مسميات مختلفة لمؤسسة واحدة، فليس هناك من الأدلة التاريخية، خاصة في المصادر العربية التي ذكرتها ما يثبت أو ينفي ذلك.

كما أن النشاط التجاري المغربي والتجار المغاربة قد تعاملوا مع مؤسسات أخري شبيه بالمؤسسات المغربية سابقة الذكر في الموانئ التي رحلوا لها، فمثلاً كان هناك ديوان خاص بالبحر في ميناء الإسكندرية مهمته التفتيش علي السفن القادمة والبحث عن أي سلع مخالفة وتحصيل الضرائب، والاستعلام عن أحوال البلاد القادم منها تلك السفن، والاستفسار عن اتجاه السفينة بعد المغادر[١].

كما أن هناك نوع من المؤسسات التي اختصت بتنظيم المعاملات التجارية خاصة فيما يتعلق بالأموال وتأمينها، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تجاوزاً (المصرف)، والجدير بالذكر أن المصارف في البلاد الأوربية كانت مؤسسات فردية، ولم تكن تقوم بعمليات واسعة النطاق، وإنما كان يقام في كل سوق منضدة هي أصل البنوك الحالية، لأن الراغب في المعاملة مع الصرافين كان يجلس علي كرسي طويل أمام المنضدة عرف باسم Bank؛ وهذا هو أصل البنوك والمصارف. ولم تكن عمليات الصرف في الأسواق الإسلامية تختلف كثيراً عن ذلك، ولكنها تطورت في الغرب تبعاً لتطور الظروف السياسية العامة ، في حين أنها لم تتطور في بلاد المسلمين لتوقف الأنظمة السياسية عن التطور[٢].

وقد أمدتنا فتوى للفقيه المازري بمعلومات حول الأهمية التي يكتسبها المصرف في العمليات التجارية والتعامل بالأوراق المالية في مدينة المهدية علي الأرجح. وهذه الفتوى يُفهم منها أن التجار سواء المحليين أو الدوليين كانوا

١)ابن جبير: مصدر سابق، ص١٣.

٢) حسين مؤنس: عالم الاسلام، ص٢٧٣.

يدفعون ما تحصلوا عليه من دراهم للصيارفة الذين يتعهدون بتسديدها إليهم فيما بعد بالدنانير؛ وكان تجار الجملة لا يسددون ثمن السلع أو الحبوب المسلمة إليهم من طرف تجار آخرين والمقومة بالدينار، بل يدفعونه بواسطة الديون المتخلدة في ذمة الصيارفة. ويتعلق الأمر "بحوالة" أو تحويل دين إلي حساب الغير؛ فالبائع هو المدين "المحيل"، والمزود هو الدائن "المحال"، والصيرفي هو المدين "المحال عليه". إلا أن المزودين الذين لا يدركون دائماً طريقة الدفع بالحوالة، كانوا يخشون عدم قبض الذهب مقابل السلع التي باعوها. فهل نفهم من ذلك أن الصيارفة كانوا يسددون ثمن تلك السلع بالدراهم؟ ويمكن أن نستنتج من ذلك أن المصارف كانت تتحكم في جميع العمليات التجارية وتحابي التجار الكبار علي حساب الصغار الذين هم في وضع غير ثابت؛ وكانت الصفقات المقدرة بالذهب الصوري تتم عملياً بواسطة الفضة، نظراً لقلة المسكوكات الذهبية[١].

جـ – المؤسسات التجارية:

كانت (الحلقة) هي الشكل الأولي لسوق بيع سلع التجارة البحرية، والراجح أنه كان عبارة عن مزاد علني يتم فيه بيع السلع القادمة من الخارج للمغاربة أو بيع السلع المحلية للتجار الأجانب، إلا أن مصطلح (الحلقة) يتقاطع بشكل كبير ويختلط بمصطلح (الديوان) سابق الذكر في وثائق تلك الفترة، بشكل لا يمكن معه فصل الاثنين عن بعض، ويجعل من الصعب أن نطلق على المؤسستين أنهما مؤسستان منفصلتان في عملهما عن بعض[٢].

---

١) الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٧١، ٢٧٢.

٢) رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي الي التاجر البيزي الكبير باج ، مؤرخة بعد عام ٥٩٧ هـ ، ص٥٠ – ٥٢، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزة في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦ – ٩٧.

ويشغل (الفندق) مكانة هامة في العمران الاقتصادي المغربي، وهذه الفنادق كانت تقوم بمهمة مزدوجة فوظيفتها الأولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة والثانية إيواء النزلاء من التجار الوافدين، وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر كلما ازداد عدد فنادقها ؛ وكان الفندق هبة من الدولة للتجار الأجانب كما يستشف من المعاهدات، وكان يحق لها أن تسترده في أي وقت تشاء وكانت هذه الفنادق تتبع ادارة الجمارك[١].

وكانت بعض الفنادق تُخصص في تخزين سلعه واحدة، ويشتهر هذا الفندق باسم السلعة التي تُخزن فيه؛ ففي عصر المعز بن باديس(٤٠٦-٤٥٤هـ/ ١٠١٦-١٠٦٢م) كان هناك فندقاً يُعرف بفندق الكتان، كان مخصصاً للكتان والملابس البيضاء المصنوعة منه[٢]. وفي أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، كانت بعض الفنادق مستودع للخمور ومركزاً لبيعها، لذلك صدرت أوامر بهدم "فندق الخمور" بتونس لمكافحة تجارة وشرب الخمور وبناء جامع البحر مكانه[٣].

وكانت الفنادق الموجودة في كثير من الأحيان ملك لأشخاص، فقد سئل المازري عن شريكين في فندق توفي أحدهما، وترك ورثة ثم توفي الآخر وترك ورثة،

---

١) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزة في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦ – ٩٧، Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis,pp٢٨٠ – ٢٨٤ , Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, pp٢٨٦ – ٢٩١, Un Traité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩ – ٢٠٢

محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢٠٦، ٢٠٧، أحمد اسماعيل الجمال: مرجع سابق، ص١٣٠، شرقي نوارة: مرجع سابق، ص٢٤١.

٢)ابن عذاري: البيان المغرب، جـ١، ص٢٨٠.

٣) الزركشي: مصدر سابق، ص٤٧.

obeikan.com

وقد أدى هذا إلى وقوع نزاع بين الورثة على الفندق، كما كانت هناك فنادق ملك للدولة[١].

وكانت الفنادق تُسمي باسم مدن التجار المقيمين فيها، فهناك فنادق نُسبت إلى تجار مرسيليا، وهناك فنادق نُسبت إلى تجار جنوة وفنادق لتجار بيزة وأخرى لتجار فلورنسا والبندقية ومرسيليا، ومنذ عام٦٥٠هـ/١٢٥٢م كان للتجار القطلونيين فندق في تونس. وما يمكن ملاحظته على الفنادق أنها كانت متجاورة ففنادق كل من بيزة والبندقية متجاورة، ففي مدينة تونس كان هناك حي أو رباض كامل لفنادق التجار النصاري خارج باب البحر. لكن لا يُسمح للتجار بالانتقال من فنادقهم الي الفنادق الأخرى ويفصل بينهم بسور. وغالباً ما تكون الفنادق في ضواحي المدن، كما هي في الفنادق الموجودة في زويلة ضاحية المهدية[٢].

وقد كان الفندق المسيحي بالمغرب عبارة عن مجمع سكني مشابه بخانات التجار الأجانب الشرق كالتي توجد بالقسنطينية أو إزمير ودمشق والقاهرة[٣]. وكان الفندق يتكون من طابقين يتم الدخول إليه عن طريق باب ضخم يسمح

---

١) عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٧.

٢) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن ابي خرسان الي حكومة بيزه، ص١ – ٦، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزه في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦ – ٩٧، UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, pp١٩٩ – ٢٠٢ , الهادي روجي ادريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣١ – ٢٣٤، ٢٩٩، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٧٣-٧٥،

الحسن الوزان: مصدر سابق ، جـ٢، ص٧٤، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٧،

Mas Latrie : traites de Paix , p٨٢ ,١٨٦ .

٣) عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١- ٢٣٤.

obeikan.com

بمرور جمل محملاً وبالباب باب صغير يُطلق عليه (باب بوخوخة) يُستخدم من قبل النزلاء ثم سقيفة وفناء للفندق تفتح عليه حجرات الطابقين ، ويُستغل هذا الفناء في تخزين البضائع وفي عمليات التعاقد التجاري والبيوع وغيرها[١]. وكانت الفنادق تحتوي على مقر سكن القنصل وكنيسة ومقبرة وفرن ومكان كاتب العدل وربما يكون فيه حمام عمومي[٢]. وهناك بقايا من هذه الأحياء من طرابلس إلى سبتة يمكن للباحث العثور عليها[٣]. وكانت الإقامة في الفندق تكلف التاجر غالياً فهو يقوم بتسليم أمواله لصاحب الفندق، وهو يشتري له ما يريد، ويمكن أن يشتري له جارية إذا أراد ذلك[٤].

وقد تحدثت المصادر الجغرافية عن الفنادق التي وُجدت في مدن المغرب الأدني، ومن ذلك ما قاله ابن حوقل "وكانت هناك خانات وفنادق في المهدية "، وربما تكون هي نفسها الفنادق التي تكلم عنها الإدريسي عند كلامه عن زويله ربض المهدية التي قال عنها: "وبمدينة زويلة فنادق كثيرة "، وأشار ابن حوقل إلى فنادق سوسة[٥].

وتحدث البكري عن فنادق المدن في المغرب الادنى وذكر تقريباً كل المدن التي بها فنادق، فقال عن قابس "وكانت بها فنادق"، ويكون وصف ياقوت الحموي

---

١) سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٥٥، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٥٤.

٢) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزة في عام ٧١٣هـ، ص٨٦ – ٩٧، الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٧٤، عبد المالك بكاي: المرجع السابق ، ص٧٧ ، صالح بن قربة واخرون: مصدر سابق ، ص٣١٤، ٣١٥.

٣) عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١ – ٢٣٤.

٤)عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٧.

٥)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٣، ٧٤، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٨.

obeikan.com

مشابهاً لوصف البكري حين قال "وكانت هناك مجموعة من الفنادق في قابس"[١]. كذلك اكد هذه المعلومة صاحب الاستبصار[٢].

وقد ذكر البكري فنادق في مدن أخرى، فأشار إلى فنادق في مدينة القصر القديم، ثم تحدث عن مدينة "قلشانة التي تبعد عن القيروان بعشرين ميلاً وبها عشرين فندقاً "، وقال أن في مدينة تماجر فندق واحد، وقال عن تونس أن بها "فنادق كثيرة "، وهو ما قاله عن منستير عثمان وفنادق باجة. وذكر في مدينة فج الحمار فندق واحد، أما مذكود وقرية جهنين ففيهما فنادق كثيرة، بينما ساقية ليس فيها سوى فندق واحد[٣]. كما إمتلأت القيروان بالفنادق لخدمة الوافدين عليها[٤].

ولم تكن بلاد المغرب الأدنى هي الوحيدة من بلاد المغرب عامةً التي تحتوي على تلك الفنادق، فنستنتج من نوازل وفتاوي المعيار كثرة عدد الفنادق في الحواضر المغربية، ويشير الانصاري إلى كثرة فنادق سبتة؛ فيقول: "وعدد الفنادق حسبما استفاض علي ألسنة أهل البلد ثلاثة مائة وستين فندقاً اعظمها بناء واوسعها مساحة الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع...ويليه في الكبر من الفنادق المعدة لسكني الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم...وابدعها صنعة فندق الوهراني[٥].

١) البكري: مصدر سابق، ص٢٠، ياقوت الحموي: مصدر سابق، جـ٤، ص٢٨٩.
٢) مجهول: الاستبصار، ص١١٢.
٣) البكري: مصدر سابق، ص٢٨، ٢٩، ٥٦، ٥٧، ١٤٦، عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص٧٨.
٤) ابن عذاري: جـ١، ص٢٦١.
٥) ابن الزيات التادلي: مصدر سابق، ص٤٥٥، ابن عبد الملك السبتى: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، الطبعة الثانية١٩٨٣م، ص٣٨، ٣٩، كمال السيد أبو مصطفي: جوانب من الحياة الاجتماعية= =والاقتصادية

obeikan.com

وكان بجزيرة صقلية فنادق أيضاً تستقبل التجار والمسافرين المسلمين بما فيهم المغاربة[١]. كما كان للمسافرين والتجار المغاربة فنادق أيضاً في الأراضي المصرية، فبعد عبور ابن جبير ومن معه من تجار ومسافرين إلى داخل الأراضي المصرية نزل بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور[٢]. وأُنشئت الفنادق في الإسكندرية للبنادقة والجنويين والبيزيين والفلورنسيين والفرنسيين، كما كان لإفريقية فندق وآخر لقبرص، كما كان للأتراك فندق وكذلك للمغاربة. واتصفت فنادق الإسكندرية بأن بعضها كان يتألف من عدة طوابق ، وكانت المخازن توجد في الطابق الأرضي، حيث يتم حزم وتفريغ السلع[٣].

كذلك انتشرت هذه الفنادق في بلاد الأندلس ، فازدحمت مدينة ألمرية بأعداد كثيرة من الفنادق "وتحتوي مدينة المرية علي ألف فندق إلا ثلاثين فندقاً "، أما مدينة بجانة في بلاد الأندلس فقد جُهزت أيضاً بعدة فنادق لخدمة الغرباء[٤].

وما دامت الفنادق عبارة عن منشآت تجارية وسكنية للتجار الأجانب في حي تجاري، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل كان التجار المسلمون حين سفرهم الي أوربا يقيمون في فنادق؟

أن قلة المعلومات المصدرية الإسلامية عن الأسواق والفنادق الأوربية، ربما يرجع إلى أن تلك المؤسسات كانت أقل جذباً من نظائرها في البلاد الإسلامية، إذ

والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية ١٩٩٦م ، ص٧٤، ٧٥.

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٣٠٠، ٣٠٧.

٢) المصدر السابق: ص١٩.

٣) المصدر السابق: ص١٢، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢٠٦، ٢٠٧.

٤) القزويني: مصدر سابق، ص٥٠٩، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٥٥.

obeikan.com

ليس لديها سوي القليل مما تقدمه في إطار التصدير، وعلى أية حال كان يمكن الحصول علي معظم المنتوجات الشمالية بسهولة من التجار المسيحيين الذين احتشدوا بكثرة في الموانئ الإسلامية. وربما أن المسافرين لم يجدوا أن المدن المسيحية ملائمة لحاجاتهم، وخاصة ما يتعلق بالتسهيلات من أجل الاستحمام والطعام، فإجتنبوها في نهاية الأمر. من جانب اخر فقد افتى العديد من الفقهاء بأنه لا يجوز لأحد من المسلمين الدخول الي أرض الشرك لغرض التجارة وغيرها إلا في حالة واحدة، وهي فك مسلم من الأسر فإذا جعلها لغير ذلك وهو طائع غير كاره فان إمامته تسقط وشهادته لا يعتد بها، ومن هنا يمكن أن نقول بأنه ما دام السفر الي بلاد الكفر حرام فما بالك بالإقامة في بلاد دار الحرب . لكن رغم صدور هذه الفتاوي التي تحرم التعامل مع بلاد الكفر إلا أن التعامل معهم ظل قائماً، وما دام التعامل ظل موجوداً فمن المحتمل وجود فنادق للتجار المسلمين داخل الدول المتعامل معها. فبنيامين التيطلي في رحلته تكلم عن مناطق عدة ومنها منطقة مونبولييه، وقال عنها " يجتمع فيها التجار من نصاري ومسلمين ومن مختلف الأقطار من عدوة الغرب ولمبردية وممالك رومية الكبري وفلسطين وبلدان أخري ثم يقول بأنهم يتكلمون بكل لغة ولسان" وتكلم عن نغزوبنت وقال" بلدة كبيرة علي شاطئ البحر يؤمها التجار من كل حدب وصوب". ومن هذا يمكن أن نقول أن ما دام بنيامين التيطلي يتحدث عن هذه المدن التجارية التي يقصدها التجار المسلمون من كل مكان، فهذا يعني أن هذه المدن تحتوي على فنادق لأنه لا يمكن دخول التجار وخروجهم من المدينة في نفس اليوم ويمارسون البيع والشراء[1].

---

١) بنيامين التطيلي: مصدر سابق، ص١٨٦، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١١١، ١١٢، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٨، ٧٩، أحمد الشحلان: رحلة ابن بونة الأندلسي التيطلي: مقال منشور في كتاب الرحلة بين الشرق والغرب اتصال أم انفصال، (ندوة)، منشورات كلية الآداب، ط١، الرباط ٢٠٠٣، ص١٩٢.

كما عُرفت الفنادق في اقصى المناطق التي رحل إليها التجار المسلمون وغير المسلمون خلال تلك الفترة؛ فالفنادق قد عُرفت في بلاد الصين فقد كانت الصين تشتهر بوجود الفنادق التي تستضيف المسافرين، والتي تميزت بالنظام الأمني المحكم الذي يقوم على حماية المقيمين في تلك الفنادق من تجار ومسافرين، من خلال رجال أمن يختصون بحصر كل المقيمين كل ليله وتسجيل اسمائهم في قوائم والسهر على حمايتهم لليوم التالي. كما تميزت تلك الفنادق بوجود جميع ما يحتاج إليه المسافر والتاجر من المؤن وخصوصاً الطيور المخصصة للأكل[١].

ورغم وجود الفنادق كمؤسسة تجارية رئيسية إلا أن الأسواق العامة كانت موجودة ولها دورها وأهميتها في التجارة البحرية. فلم تتعدى وظيفة الفنادق أنها مركز رئيسي لعمليات تخزين السلع واقامة التجار الاجانب ولم تكن مؤسسة لممارسة كامل عملية البيع والشراء لتلك السلع. لذلك نجد بعض المصادر مثلاً تشير إلى أن العادة جرت بمدينة تونس أن التجار النصاري بعد أن يخزنوا سلعهم في فنادق عليهم أن يذهبوا الى سوق المدينة الرئيسي لعرضها على التجار المحليين وليس العكس بأن يذهب التجار المحليين اليهم في الفنادق لشراء تلك السلع، وكان قاضي الجماعة عمر بن عبد الرفيع كتب على العطارين عقداً أن لا يفعلوا ذلك[٢]. كما يذكر صاحب الاستبصار أن مدينة طرابلس كان بها اسواق تجارية حافلة[٣]. كما يشير صاحب الاستبصار إلى أسواق المهدية الضخمة، حيث بُنيت تلك الأسواق بالصخر الجليل[٤].

١) ابن بطوطه: مصدر سابق، ص٦٣٢ .
٢)الأبي: مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٠.
٣) مجهول: الاستبصار، ص١١٠.
٤) مجهول: المصدر السابق، ص١١٧.

openkan.com

ويشير المقدسي إلى منطقة تُسمي "غافق" بجوار قابس كان بها أسواق بحرية تُعقد كل يوم جمعة[١]؛ وهذا ما يؤكده الحسن الوزان عن مدينة عنابة، فقد كانت تستقبل السفن من كل حدبٍ وصوب لشراء بعض السلع لاسيما القمح والزبد، ثم يُعقد سوق جامع لتلك السلع كل يوم جمعة خارج المدينة قرب الأسوار، ويستمر هذا السوق طوال النهار حتي حلول الليل[٢]، ولكن يبدو أن إشارة الوزان لتلك الأسواق الأسبوعية كانت في الأغلب للسلع التي تأتي من المدن المجاورة والقريبة نسبياً بحراً مثل تونس وجلفة وطرابلس والقليل منها من جنوة[٣]. كذلك يشير الوزان الى سوق جامع في جزيرة جربة يُعقد مرة في الإسبوع وهو يشبه المعرض الكبير[٤].

كما كان هناك أسواق منتشرة على طول طريق التجار المغاربة، حيث أن مدينة جدة كانت أسواقها ممتدة مع جانب البحر وغالبها أخصاص واسعة متفتحة إلى البحر[٥]. أما السلع القادمة من مناطق بعيدة وتكون كميتها كبيرة فكان يتم البيع والشراء في الفنادق أو داخل حدود الموانئ حسب مواعيد وصول سفنها.

من جانب آخر كان هناك مؤسسة تجارية اخري تُسمي "الخان" تشبه الفندق تُستخدم لخدمة الأغراض التجارية، وكانت مُعدة للتجار والمسافرين المسلمين، فقد

---

١) المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤.
٢) الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٦٢.
٣) مارمول: مصدر سابق، جـ٣، ص٨.
٤)الحسن الوزان: مصدر سابق، جـ٢، ص٩٤.
٥) الدرعي: الرحلة الحجازية، الخزانة العامة بالرباط، ق.٢٩٧، حج عام ١١٥٢ هـ، ص١٣٢.

obeikan.com

اشتهرت المهدية بوجود الخانات[١]. والتي كانت على مستوي عالي من المباني والخدمة[٢]. أما الادريسي فيذكر أن خاناتها كانت كثيرة[٣].

وقد عُرف الخان في بلاد الشام أكثر من بلاد المغرب، وكان مُعداً أيضاً للتجار والمسافرين المسلمين بما فيهم المغاربة، مثل الخان الذي نزل به ابن جبير في مدينة صور ببلاد الشام أثناء احتلال الصليبيين لها. والخان هو عبارة عن مبني ضخم يتوسطه فناء علي هيئة رواق حيث يحفظ التجار بضائعهم ويجدون في الخان المأوي لهم ولدوابهم خلال رحلتهم. والخانات لم تختلف من حيث تكوينها أو الغرض من إنشائها عن الفنادق في شئ؛ سوي أن الفنادق في المدن الإسلامية خصصت للتجار الأجانب من غير المسلمين، بينما خُصصت الخانات في هذه المدن الإسلامية لتجار المسلمين الوافدين من العالم الإسلامي، أو لخدمة التجارة الداخلية والخارجية، بينما في المدن التي خضعت لحكم الفرنج في بلاد الشام نجد أنها أي الخانات قد خصصت لتجار المسلمين في حين أن الفنادق بها قد خُصصت للتجار الغربيين المقيمين إقامة دائمة أو الوافدين علي البلاد، وكذلك للحجاج المسيحيين الآتين لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية في بلاد الشام ومصر ويتم استضافتهم فيها[٤].

كما كانت الوكالة في معناها كالفنادق والخانات. ويحدثنا المقريزي بأن هذه المنشآت كانت تقوم بجانب مهمة البيع والشراء، بمهمة النزل ومحل الإقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم، كما أنها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٣، ٧٤، الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨١، علي السيد علي: العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى١٩٩٦م، ص٨٣، ٨٤.

٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٣، ٧٤.

٣) نزهة المشتاق: جـ١، ص٢٨١.

٤) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٧٧، علي السيد علي: مرجع سابق، ص٨٣، ٨٤.

obeikan.com

فتوزع ما يرد اليها من الأسواق، وقد جرت العادة بأن يُبني فوق هذه المنشآت رباع تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتصرت علي المسلمين فقط، وانتشرت الوكالات في مصر وعلي طول شواطئ البحر الأحمر(١). ولعل الوكالة هذه كانت معروفة في بلاد المغرب في اوقات متأخرة، فيشير الحسن الوزان إلي مجمع كبير يسكنه التجار المسلمين أو النصاري الغرباء ويقام فيه الأسواق الاسبوعية سماه باسم "مدشر كبير"(٢).

وقد كانت الدول الأجنبية تمتلك في بعض الأحيان متاجر خارج أسوار الفندق. وقد اعتاد المرسيليون إكتراء متاجر بالمستودع العمومي للمدينة بتونس حيث يتم بيع خمور شمال إفريقيا وذلك حتى عام٦٢٥هـ/١٢٢٨م، وقد كانت بلدية مرسيليا تفرض علي مندوبها بسبتة ووهران وتونس وبجاية كراء متجر واحد لبيع الخمر للمسيحيين بفندق الدولة وتمكنهم من كراء متجر لخياط، واخر لإسكافي ومتجران لصانعي الجلود، وتوصيهم بتخصيص متجرين: واحد لهم وآخر لكاتب. وينص القانون علي أن توضع رهن إشارة التجار الموازين والمكاييل المصدقة من طرف السلطات المعنية بالبلدية(٣).

ومن المؤسسات التجارية أيضاً مخازن السلع، فقد ذكرت احدي فتاوي البرزلي تلك المخازن، حيث أُشير إلي مخازن المنستير، والتي يبدو أنها كانت من الأحباس إلا أن التجار استخدموها في تخزين سلع تجاراتهم خاصه القمح(٤).

د – المؤسسات الخدمية:

---

١) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص٥٧٢، ٥٧٩، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢٠٥، ٢٠٦.

٢) وصف أفريقيا: جـ٢، ص٩٤.

٣) عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١- ٢٣٤.

٤) المازري: مصدر سابق، ص١٨٩.

obeikan.com

كانت تلك المؤسسات تُستخدم بشكل اساسي في توفير سبل الراحة وخدمة العاملين بالنشاط التجاري البحري لاسيما التجار، ومن تلك المؤسسات الحمامات والافران ودور العبادة .

كانت المصادر المختلفة تتعمد دائماً عند الحديث عند ذكر الفنادق والأسواق في اي مدينة ان تقرن حديثها بذكر الحمامات، وكأن الحمام كان منشأة خدمية لابد أن توجد في أي مدينة تستقبل تجار أجانب في فنادقها وأسواقها حتى يستخدمونها(١).

فيذكر صاحب الاستبصار حمامات طرابلس(٢)وحمامات مدينة قابس(٣)، وعندما تحدث البكري عن فنادق المدن في المغرب الادني وذكر تقريباً كل المدن التي بها فنادق ذكر معها وجود حمامات كمدينة قابس التي اشتهرت بكثرة حماماتها وكذلك مدينة طرابلس"(٤).ومنستير عثمان ايضاً عُرفت بكثرة حماماتها ومدينة القصر القديم ومدينة تماجر وتونس، وأما مدينة باجة فكان يوجد بها خمسة حمامات مُعدة لاستقبال الغرباء وبونة(٥)، وكذلك مدينة بنزرت الواقعة علي الساحل(٦)، كما

---

١) Un Traité de commerce conclu pour trente ans entre la république de Pise et le roi de Tunis, Abou-Zakaria-Yahia, fils d'Abou-hafs,pp٣١- ٣٥, UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩ – ٢٠٢

٢) الاستبصار: ص١١٠.

٣) المصدر السابق: ص١١٢.

٤) البكري: مصدر سابق، ص٢٠، ياقوت الحموي: مصدر سابق، جـ٤، ص٢٨٩، الحميري : مصدر سابق، ص٣٨٩، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٧٨.

٥) البكري: المصدر السابق، ص٢٨، ٢٩، ٥٦، ٥٧، ١٤٦، عبد المالك بكاي: المرجع السابق، ص٧٨.

٦) البكري: المصدر السابق، ص٥٨.

Obeikan.com

أن المهدية كانت حسب رأي ابن حوقل ذات حمامات حسنة[١]، وجاء بعده بقرن ونصف القرن الإدريسي ليصف حماماتها بـ"الجليلة"وانها تمتلء بالحمامات[٢]. كما إمتلأت القيروان بالحمامات لخدمة الوافدين عليها[٣].

ووجد فرن عمومي لخدمة الأجانب خاصة التجار وغالباً ما كان يُلحق بفندقهم، وقد خُصص جانب من المساكن للقنصل ومستشاريه. وقد كان منزل القنصل مزخرفاً بأعمدة وبه شرفة وتسمي (La loge)، وفي الطابق السفلي هناك بعض الحجر التي استعملت كسجن أو كمحل للمحاكمة[٤].

ولم تنص المعاهدات التي أمضاها الملوك النصارى مع الملوك المغاربة علي إعطاء الحق لمواطنيهم لإقامة فندق غير متوفر على مقبرة وكنيسة، حيث يؤدون صلواتهم ويشيعون أمواتهم بكل حرية بما في ذلك التراتيل الدينية بصوت مرتفع، وينبغي أن تكون هذه الكنائس أكبر من مجرد زوايا متواضعة[٥]. ويذكر الونشريسي

---

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٣، ٧٤.

٢) الادريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٨١.

٣) ابن عذاري: مصدر سابق، جا، ص٢٧٢.

٤) Un Traité de commerce conclu pour trente ans entre la république de Pise et le roi de Tunis, Abou-Zakaria-Yahia, fils d'Abou-hafs,pp٣١- ٣٥ , Un Traité de paix et de commerce négocié pour quarante ans par Pierre Delfino entre la république de Veise et le roi de Tunis , pp١٩٦ – ١٩٩ , UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩ – ٢٠٢

عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١- ٢٣٤.

٥) UnTraité de paix et de commerce pour quarante ansentre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩ – ٢٠٢، وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين، ص ٧٠٩ - ٧١٢، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١- ٢٣٤.

obeikan.com

وجود فندق للنصاري بمدينة تونس في العصر الحفصي، وسُمح لهم أيضاً باقامة كنيسة في فندقهم هذا ، لإقامة شعائرهم الدينية في حرية تامة، مما يدل علي تسامح السلطات الحفصية مع الجاليات النصرانية[١].

وقد كانت كنائس بعثة جنوة وبيزة بتونس موضوعة برسم مريم العذراء. وقد كان أحد رجال الدين المعروفين من بين شهود معاهدة٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، كما كان لكاهن بيزة لقب خوري (Curi)، وقد كان خوري بجاية كخوري بيزة تابعاً لكبير أساقفة بيزة ويؤدي له جزية سنوية، وكانت إحدى متاجر الفندق بتونس تحت تصرف مقر الخوري الذي يخصصه لأموره الخاصة. وقد تركت معاهدة عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م لسكان البندقية الحق في زيادة مساحة كنيسة تونس. وكانت مصاريف البناء والصيانة والتوسيع للفنادق علي حساب الجمارك أي السلطات المغربية، غير أنه في عام٦٧٩هـ/١٢٨٠-١٢٨١مأعطى المجلس الأعلى للبندقية تعليماته لقنصلهم بتونس باستعمال جزء من حقوق كراء المتاجر والحمام العمومي وذلك لإصلاح الفندق. ويكون مجموع المؤسسات الأوربية بتجاورها واختلافها ما يسمي: المنطقة الحرة (Le quartier franc) بالمدن الشرقية[٢].

ولم نشاهد في هذه المراكز المسيحية المنتشرة في مدن المغرب ظواهر التحدي والإهانة التي كان يتعرض لها الأوربيون في بعض موانئ الشرق والاسكندرية، حيث كان للسلطات الإسلامية الصلاحية المطلقة في فتح وإغلاق أبواب الحي[٣].

ثالثاً – نظام العمل اليومي والرقابة في مراكز النشاط التجاري البحري:

١) كمال السيد ابو مصطفي: جوانب، ص٧٥.

٢) وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين، ص٧٠٩- ٧١٢، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١-٢٣٤.

٣) عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٥، ص٢٣١- ٢٣٤.

obeikan.com

كان هناك أعرافاً وقوانين لنظام العمل اليومي في المراكز التجارية، وكانت هذه الأعراف يحكمها نظام رقابي منظم للنشاط التجاري من قبل الكيانات الحاكمة والموظفين التابعين لها، وكان نظام العمل في مراكز النشاط التجاري البحري والرقابة المفروض وعليه تختلف في حدتها ونوعيتها من مركز لاخر، كما سنعرض كالتالي:

أ- نظام العمل اليومي:

كان نظام العمل اليومي في موانئ المغرب الأدنى يقوم على التخفيف في شحن السفن بالسلع خاصة في الأيام العاصفة، فكان يؤمر الحمالين أن يخففوا الأشحان فإن ذلك موضع هلاك لاسيما في يوم عاصف من الريح؛ وكان في كل مرسى معبر للمدينة معديتان أو قاربان ليكون ذلك أرفق وأسهل لعبور الحمالون والتجار والركاب للسفينة وأخف لشحن البضائع لاسيما عند الرياح الشديدة[١]. وكانت حركة المد والجزر تؤثر على عملية شحن وتفريغ السفن وكذلك على الانشطة التجارية المترتبة عليها، فقد كانت السفن في ميناء صفاقس تقف في المنطقة الضحلة في وسط المياة عند الجزر، ثم تتقدم الى الميناء الرئيسي لتستأنف عملية الشحن والتفريغ والبيع والشراء وذلك عند حركة المد[٢]. أما في طرابلس فقد تتسبب الرياح الشديدة والأمواج العاتية في توقف بعض السفن التجارية في وسط المياه ويصعب عليها الارساء في ميناء المدينة، مما يدفع اهل طرابلس بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين، فيقيدوا تلك السفن ويُرسي بها في أسرع وقت بغير[٣].

وكان بيع المواد الواردة عن طريق البحر، يتم في أغلب الأحيان داخل "ديوان البحر" وتحت مراقبته المباشر، إما بالتراضي أو بالمزاد العلني (أو الحلقة). ويمكن أن

١) ابن عبدون: مصدر سابق، ص٢٦، ٢٧.
٢) البكري: مصدر سابق، ص٢٠.
٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧١، ٧٢.

يتم أيضاً بحرية خارج ديوان البحر، وعندئذ تسجل عقود البيع في سجلات القنصليات ، مثل سائر العقود المالية والتجارية. ومهما يكن من أمر فإن الديوان يستخلص أداءاته نقداً أو عيناً في آجال متغيرة، حسب جنسية التجار. أما التجار الراغبون في العودة، فيتعين عليهم تقديم حساباتهم الي الديوان، مرفوقة بجميع المستندات، مثل وثيقة "التنفيذ"، المسلمة من طرف الإدارة؛ إذا كان الأمر يتعلق بتزويد المصالح الحكومية. وبعد ضبط ميزان الحسابات ودفع الأداءات، يسلم الديوان إليالمعنيين بالأمر وصلا (أوبراءة)، تقوم مقام تأشيرة الخروج[١].

وكانت الاتفاقيات الدولية تحدد الموانئ التي يجب التوقف فيها للتجارة بالمغرب وتحدد طرق تعامل تجار البلاد الاجنبية مع المغاربة سواء تجار او اشخاص عاديين . حيث نصت معاهدة الصلح بين الخليفة الموحدي يعقوب المنصور وحكومة بيزة عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، على ألا يكلموا احدا من اهل تلك الموانئ في شئون التجارة وتلك الاتفاقية ومتى تعدى احد منهم هذا الحد المحدود فدمه وماله مباحان لأهل هذا الأمر العزيز لا ذمة تمنعه ولا عهد لتعدّيه يحجزه، كما نصت تلك الاتفاقيات علي أن من حق التجار الاجانب اذا رسوا في موانئ المغرب عامة والمغرب الأدني علي وجه الخصوص، أن لا يبيعوا بضاعتهم أو يشتروا شيئا إذا رأوا أن البيع أو الشراء فيه أذي لمصالحهم التجارية أو أنه لن يحقق المكاسب المالية المرجوه منه[٢].

وقد يحدث بعض الخروج عن تقاليد البيع والشراء من بعض التجار الأجانب لاسيما النصاري منهم، فُيذكر أنه كان بمدينة تونس بعض التجار النصارى يضعون

---

١) رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي الي التاجر البيزي الكبير باج، ص٥٠ – ٥٢، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزة، ص٨٦ – ٩٧، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٥١-٢٥٣.

٢) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة ، ص١٧ – ٢٢.

obeikan.com

سلعهم بالفندق خارج باب البحر، فيذهب إليه بعض العطارين فيشتريها منه، فيحرج الفتيا أنه إن كانت العادة أن يُؤتي بعرض تلك السلع السوق فهو من باب الذوق التجاري المعتاد[١].

وكان التاجر في المحيط الإسلامي عامة وبلاد المغرب خاصة، عليه أثناء عملية البيع الانتباه إلي البضاعة التي يبيعها من حيث التدقيق في مواصفات وجودة هذه السلع بالإضافة لمدى تنوعها وسعرها ووضعها الشرعي والقانوني وباقي المواصفات الأخري لهذه السلع. وعليه أن يدرس الطبيعة العامة للأسواق، وأن يهتم بالبضائع التي ستؤدي إلى الربح. وقبل كل شيء عليه "ألا يضيع ماله في بضاعة لا يستعملها الناس، لأن الطلب قليل على هذه السلع، ويبيعون ببطء " فقد كان التاجر يحتاج إلى فطنة فى أعماله ومعرفة وذاكرة ممتازة كي ينال النجاح في العالم التجاري في العصر الاسلامي. وعمل بعض تجار العصر الاسلامي في مختلف أنواع البضاعة: المرتفع الثمن والرخيص، وكان نادراً أن يتخصص التجار أو يحددوا تجارتهم في نطاق بضائع معينة. فقد تضمنت مراسلات ابن حوقل الغنية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي مراجع عن ثلاثة وثمانين نمطاً مختلفاً وصنفاً من المنتجات[٢].

---

١)الأبي: مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٠.

٢)رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن الي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي، ص٤٥٥،٤٥٤، رسالة ثانية من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عدن إلي خاله عروس بن جوزيف الارجواني المهدوي في مصر، ص٤٥٦،٤٥٥، رسالة من التاجر المغربي اليهودي علان بن حسون في عيذاب إلي أولاده في مصر، ص٤٥٦.

Goitein.S.D ; From the Mediterranean to India: Documents on the Trade to India, South Arabia, and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries, Speculum, Vol. ٢٩, No. ٢, Part ١ ,Apr., ١٩٥٤.pp ١٨٧, Goitein. S.D; Portrait of a Medieval India Trader: Three Letters from the Cairo Geniza, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. ٥٠, No.٣ , pp٤٥٠ – ٤٥٤ . ، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٢٣٠، ٢٣١.

obeikan.com

أما نظام العمل اليومي في الموانئ الاخرى التي دخلت في حيز النشاط التجاري للمغرب الأدنى، فقد كان لكل ميناء نظام خاص في تعامله مع التجار والسفن الواردة إليه، وكانت هذه النظم تتأثر سلباً وإيجاباً بمدى تشجيع الحكام للتجارة والتجار، فقد قامت الموانئ بدور السوق إلى جانب كونها موانئ تصدير وإستيراد، ففي ميناء عدن كان للسفن نظام معين في التعامل، فعندما تقترب من الميناء يصعد المباشرون فيسلمون على الناخوذة ويسألونه من أين هو قادم، ويكتبون اسمه واسماء التجار وجميع ما في بطن المركب من المتاجر، ثم يخبرون الوالي بأمر المركب، ثم يفتش الرجال والنساء تفتيشاً ذاتياً، وكانت الرسوم على الفلفل تبلغ حوالي ثلث ثمنها، وكان عمال الجمرك يعمدون الي نزع قلاع ودفة السفن حتي يتم دفع هذه الرسوم، ولكي تمنع السلطات أي تاجر من الفرار بدين عليه تمنعة من العودة الي بلاده، قبل أن يطوف أحد المنادين ليعلن أن هذا التاجر سوف يسافر فليطالبة كل من له دين عنده، واذا لم يظهر له دائن يسمح له بالرحيل[١].

وكان نظام الجوازات المعمول به في مصر والموروث عن الأمويين(٤١ – ١٣٢هـ/٦٦٢ – ٧٥٠م)؛ ظل مستخدماً زمن الطولونيين(٢٥٥ – ٢٩٢هـ/٨٦٨– ٩٠٤م)والأخشيديين(٣٢٤– ٣٥٩هـ/٩٣٥ – ٩٦٩م)، بل أنه انتشر شرقاً حتى بغداد[٢]. واستمر إستخدام هذا النظام فيما بعد، حيث كان على التجار من أهل الذمة خاصة اليهود أن يبرزوا أينما حطوا في أي ميناء شهادة تثبت دفعهم للجزية

١) عمارة اليمني: تاريخ اليمن، مطبعة كلبرت ورونكفن، لندن سنة ١٣٠٩هـ ، ص١٤٤، أبو مخرمة: تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها، تحقيق علي حسن علي عبد الحميد، دا الجيل – بيروت، الطبعة الثانية١٩٨٧م، ص١٨ – ٣٠، محمد عبد الغني الاشقر: مرجع سابق ، ص٢٢٨،٢٢٩.

٢) أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٢٦٢.

obeikan.com

المُستحقة عليهم، وكان على التاجر إذا نسي هذه الشهادة في بلده الأصلية أن يدفع غرامة أو كفالة عنها لحين إحضارها[١].

ومن المعروف أن البحر المتوسط كان ممراً بحرياً مشتركاً بين الدول الإسلامية ودول الفرنج، سواء تلك الواقعة في بلاد الشام أو في الغرب الأوربي، وقد شاهد هذا الممر نشاطاً ملحوظاً في النقل البحري والتبادل التجاري بين الطرفين، مما تطلب وضع قواعد ومبادئ يتفق عليها الطرفان من مسلمين وفرنج، وبخاصة بعد أن أصبحت بعض المدن والموانئ البحرية تدخل ضمن بلاد المناصفات التي تمت إدارتها بشكل ثنائي من الطرفين وحسبما تشير بعض المصادر المعاصرة بذلك. فقد جاء في نص المعاهدة التي تم إبرامها بين السلطان الظاهر بيبرس وبين فرسان الإسبتارية عام ٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠م علي سبيل المثال ما يؤكد ذلك حيث تري فيها البند التالي: " وإن كل ما هو من الموانئ والمراسي البحرية المعروفة جميعها .. تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما ينعقد عليه ارتفاعها وتشهد به الحسبانات جميعه مناصفه ". هذه القواعد والمبادئ أدت إلي قيام تقاليد مرعية وعرف بحري يتعامل الطرفان في ظله، ويستطيع الباحث المدقق في تلك المعاهدات التي عقدت إبان فترة الحروب الصليبية أن يجد عدة مواد تعتبر من جوهر العرف البحري الدولي الذي تعارف عليه المسلمون والفرنج. فمن المواد التي تتعلق بمعاملة السفن وما عليها من بضائع وأموال وأشخاص في حالة انكسارها في بلد الطرف الآخر، جاء النص التالي في معاهدة السلطان قلاوون مع فرنج عكا عام ٧٨٢ هـ/ ١٢٨٣م: " وعلى أنه إذا انكسر من مراكب تجار السلطان وولده التي انعقدت عليها الهدنة، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم: علي اختلاف

١) رسالة من سليمان بن إبراهيم الرُّقي (نسبة إلى بلدة الرَّقة القريبة من صفاقس بإفريقية) إلى أبي الفرح نسيم الرُّقي، في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ترجمة أمين توفيق ألطيبي في كتاب دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، جـ٢، ص١٤٧-١٤٩، نشر Goitiein.S.D: A .Letters of Medieval Jewish Traders , Princeton University , Press١٩٧٣. Pp٢٤٠ ,٢٤١.

أديانهم وأجناسهم في ميناء عكا وسواحلها، والبلاد الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة، كان كل من فيها آمنا علي الأنفس والأموال والأتباع والمتاجر، فإن وجد أصحاب هذه المراكب التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم. وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده. وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج، يجري لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده ، ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلي أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم"[١].

وبعد نشوب الحروب الصليبية في البحر المتوسط نشأت سلسلة من القوانين تنظم الإجراءات البحرية، وتطور بعض القوانين الدولية بضبط التجارة. وكانت أهم القوانين المنفذة في جنوب أوربا وفي مياه الادرياتيك والمتوسط في ذلك الحين هي: القانون الرودي– مستشار البحر– قوانين أولبرن– جداول أمالفيا. وكانت القوانين التي تنشأ في مناطق أخري تتبع الأغراض نفسها. ولا تجدر المبالغة في تقدير الطبيعة الدولية لهذه القوانين عندما تواجه بتطبيقها، فقد كان تنفيذها أساساً مسألة محلية تتوقف علي حسن مقصد السلطات في منطقة معينة؛ ولكن هذه الأهداف كانت عادة تعرف بأنها لحماية التجارة وضمان سلامة البضائع في أعالي البحار؛ وتفتيش السفن وفحصها للتحقق من سلامتها ولياقتها للابحار، ولتنفيذ النظام ومراجعة عدد البحارة للتثبت أن السفينة لا تحمل أقل من الحد الأدني المقرر لها، ومدي مراعاة قانون التاجر الأجنبي. وقدرة القائد أو الربان علي تحمل المسئولية وغير ذلك من التفاصيل. وفي مصر أصبح ضبط النشاط التجاري أمراً واسعاً لأن التجارة كانت المصدر الرئيسي لدخل السلطان، فقد كانت السفن الداخلة إلى ميناء الاسكندرية تخلع عنها دفافها وشراعها، وكان يحاط مدخل الميناء بالسلاسل ليلاً حتي تمنع السفن من التسلل خارج الميناء دون أن تؤدي الجمرك والضريبة. وكانت

١) علي السيد علي: مرجع سابق، ص٦٤، ٦٥.

قوائم باسم الزوار وقوائم بالبضائع التي تحملها السفن ترسل الي الهيئة التنفيذية المركزية في القاهرة فوراً بوساطة حمام الزاجل، وسرعان ما كانت التعليمات تصدر الى السلطات المحلية بالطريقة نفسها(١).

وكان على المسافر عادة أن يبرز خطاب تقديم من أحد التوكيلات المصرية القائمة في المدن الأوربية؛ وهي التي تمثل المصالح المصرية في الخارج، وكان نظامها أشبه بالنظام القنصلي. وكان كل أجنبي يؤدي قطعة ذهبية عند رسوه، ولم يكن يسمح له بالتجوال داخل البلد علي سمعتها، وخاصة بالقرب من البحر الأحمر حيث كان حراس السلطان يقومون بحماية المنطقة من أي تسلل أجنبي، وكان مواطنو كل بلد يقيمون لدي القنصل المعين لهذه الدولة الذي كانت لديه تعليمات أن يغلق بوابته من الغروب حتي الشروق وأثناء صلاة الجمعة من كل أسبوع كخطوة وقائية أساسية(٢).

وكان تحميل السفن وتفريغها يتم عند بوابات البحر فقط، وكانت تفتح علي جمرك المدينة الكبيرة، وهكذا كانت كل الصادرات والواردات تتم بمهارة قبل الافراج عنها، وكان يدير المدينة مندوب سام (نائب الملك) ذو رتبة عالية يسمي الوالي. وكانت واجباته تتضمن الاشراف علي الموازين والمقاييس، منع الغش في المعاملات؛ وتنفيذ العقود وأداء الديون. وكان له الحق في الفصل المؤقت في الخلافات الاقتصادية أو الدنيا والدين، وما زالت كتب الحسبة معروفة في الادب الاسلامي الحديث، وهي تشمل بالتفصيل حقوق المحتسب وواجباته. وكان المحتسب أيضاً حامي حمى الأخلاق العامة في المدينة، وكان في سلطته مصادرة أي شئ محظور(٣).

---

١) عزيز سوريال عطية: مرجع سابق، ص١٨١، ١٨٢.

٢) عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص١٨٢، ١٨٣.

٣) المرجع السابق: ص١٨١– ١٨٣.

obeikan.com

كما كانت التجارة في بعض موانئ العصور الوسطي لا تعمل سنوياً إلا في مناسبات معينة، ففي مكة والحجاز وجدة، كانت تُعقد أسواقها في مواسم الحج حيث يصلها أعداد كبيرة من تجار الشرق والغرب، أثناء وصول بضائع الشرق الأقصي، فيقبل على شرائها حجاج وتجار مصر والشام وغيرهم[١].

اذن كانت هناك مؤسسات إدارية تختص بإدارة شؤون البحر والنشاط التجاري البحرية مثل الديوانة أو إمارة البحر أوديوان البحر. كما وجدت نظائر لتلك المؤسسة في كثير من مراكز التجارة البحرية التي دخلت في نطاق النشاط التجاري البحري، ومن المؤسسات الادارية ايضاً ما يمكن أن نسمية (المصارف) والتي بالطبع كانت تختص بتصريف الشؤون المالية. كما تنوعت المنشآت التجارية التي اختصت بخدمة العاملين في النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى، فقد عرف بلاد المغرب الأدنى الحلقة التي كانت تستخدم فيها المزاد العلني للبضائع التجارية، كما كانت الفنادق من أهم المنشآت التجارية التي استخدمت في النشاط التجاري البحري خاصة في بلاد المغرب، كما عرفت مدن المغرب الأدنى وجود الأسواق التجارية البحرية العامة. كما عرف النشاط التجاري البحري في تلك الفترة من المنشآت التجارية الخانات والوكالات والمخازن. كما وجد منشآت خدمية اختصت بخدمة التجار الأجانب وتوفير سبل الراحة لهم وأهمها الحمامات والأفران، كما وجد كنائس للتجار النصارى ببعض مراكز التجارة البحرية بالمغرب الأدنى لكي يتعبدوا بها. كما كان هناك نظام للعمل اليومي في الموانئ التجارية يتخلف من مكان لاخر ومن منطقة لاخرى.

ب – الرقابة:

١) المقريزي: السلوك، جـ٢ ، ٣٤٢، ٣٧٨، ٥٠٦، محمد عبد الغني الاشقر: مرجع سابق، ص٢٠١.

obeikan.com

كان هناك حرص من قبل الكيانات السياسية التي قامت في المغرب الأدنى على مراقبة المراكز والموانئ التجارية ومتابعة العمل بها ومعاقبة المفسدون، فمثلاً وجه عبد المؤمن بن علي إهتماماً أكثر فيما يتعلق بتحجير المراسي، وهو مصطلح يُفهم منه احتكار الأعمال الادارية والمالية في الموانئ من قبل بعض المسئولين والعمال الفسدة ومنع التصرف فيها والحجر على حرية الانتفاع منها من قبل هؤلاء الفسدة[١]. وبعد استقرار الحكم للموحدين وجه عبد المؤمن بن على أوامره بمتابعة التجار الواصلين لموانئ دولته ومصادرة أموالهم لحين التأكد من مصدرها وأين ستنفق، وكان يسجل نص التحقيق مع التجار الواصلين في وثيقة تسمى زمام، تسجل فيها كل ما يتعلق بالمسائل المالية الخاصة بالتاجر ومقارنتها محتواها بعضها ببعض لأكتشاف أي تجاوزات قام بها التاجر[٢]. وهو ما يشبه في العصر الحديث ما يسمى بإقرار الذمة مالية.

وكان خلفاء الموحدون يستفسرون عن ولاتهم عن طريق الوفود القادمة إلي العاصمة ففي عام٥٦٤هـ/١١٦٩م إجتمع الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الموحدي بأعيان ومسئولين البلاد من أفريقية والمغرب والأندلس للإطلاع على أحوال بلادهم ومتابعتهم[٣]. كذلك كان الخليفة الموحدي يعقوب المنصور يجتمع مع الوفود القادمة عليه، حيث يستقبل كل شهر أبناء الأسواق وأشياخ الحضرة مرتين، يسألهم عن أسواقهم واسعارهم[٤].

---

١) ابن القطان: مصدر سابق، ص١٩٣، حسن علي حسن: مرجع سابق، ص١٩١.
٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٨٢.
٣)ابن ابي زرع: مصدر سابق، ص٢٠٤.
٤) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص١٣٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٤٢، ص٢١٩، حسن علي حسن: مرجع سابق، ص١٣٩، ١٤٠.

obeikan.com

وكانت وصية أبي زكريا لابنه قبل موته في عام ٦٤٧ هـ /١٢٤٩ م مليئة بالنصح والإرشاد، ومما تضمنت تلك الوصيه: عليه أن يتفقد أحوال رعيته ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم، ومهما دعي الكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراعي في حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر علي شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته. أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم متمادٍ في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف(١).

وفي أول عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م أمر السلطان الحفصي بالقبض علي أبي العباس أحمد الليانى وكان أصله من ليانة من ضياع المهدية لما شاع عنه من اختلاس أموال الديوان(٢). كما كان النفي عقوبة معتادة في تونس لمن تثبت عليه تهم الفساد المالي من عمال الدولة، فقد نفي أحد الأشخاص بعد ما ثبت عليه تزوير خطوط الشهود فعوقب ونُفي إلى المشرق، فبعث أهل المشرق: لا يحل أن تبعثوا إلينا بمثل هذا لأنه من أهل الفساد فأجيبوا بأن مفسدته ليست بمتحققة الوقوع عندكم فإنه لا يعرف شهودكم ولا خطوطهم إلا بعد مدة وعسر، وقد لا يحيا إليها(٣).

وقد واجه التجار والمسافرين المغاربة في الموانئ الأجنبية مع غيرهم من التجار الأخرين نظام رقابي اختلف في حدته وطبيعته في كل ميناء حسب أهمية هذا الميناء وموقعه وما تمر به كل منطقة من ظروف مختلفة. ففي ميناء مدينة صور على ساحل بلاد الشام كان هناك حُراس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم(٤).

---

١) ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٣٩٧ – ٤٠٠، علي محمد الصلابي: مرجع سابق، ص٣٣٠.
٢) الزركشي: مصدر سابق، ص٣٦.
٣)الأبي: مصدر سابق، جـ٤، ص٤١٠.
٤) ابن جبير: مصدر سابق، ص٢٧٧، ٢٧٨.

obeikan.com

كما أدى كثرة الأنشطة التجارية بميناء عدن عند مدخل البحر الاحمر الجنوبي، إلى اضطرار السلطات في تلك الفترة الى المبالغة في الرقابة على السفن التجارية الراسيةفي ذلك الميناء وتحصيل الضرائب منها. مما نتج عنه سوء في معاملة تجار تلك السفن في بعض الأحيان، فتذكر بعض المصادر أنه صار من التقاليد المرعية عند وصول احدي السفن الي عدن أن يصعد اليها عمال الميناء وينزعوا قلاعها ودفتها ووسأتها حتي لا يمكنوها من الابحار قبل أن تدفع الضرائب المستحقة علي ما تحمله من المتاجر، أما التجار فكانوا يفتشون تفتيشاً دقيقاً قبل أن يسمح لهم بالنزول من السفن الي الميناء. وبلغ من دقة هذا التفتيش أنه تناول العمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحت الآباط، كذلك وجدت عجوز تفتش النساء. فاذا أتم التاجر بيع بضاعته ودفع ما عليه من ضرائب، وتأهب للعودة من حيث أتي، طاف مناد في طرقات عدن معلناً أن التاجر الفلاني سيغادر الميناء فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به، واذا لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل[١].

ومن غير المستبعد ان التجار المغاربة الذين امتد بهم السفر إلى بلاد الشرق الأقصى قد لاقوا نظام رقابة في موانئ تلك المنطقة، ففي الهند يقوم المسئولون عن الميناء بسؤال اصحاب السفينة عما بالسفينة من بضائع لتقدير الضرائب المفروضة عليها، ثم يقومون بحصر تلك البضائع، فاذا وجدوا بضائع لم يذكرها لهم أصحاب السفينة، غرموا على تلك البضائع أحد عشر ضعف الضرائب المفروضة على البضائع المذكوره، أما في الصين فالوضع أشد وأسوء، فعند قدوم سفينة تجارية أمروا اصحاب السفينة أن يذكروا لهم تفصيلاً بجميع البضائع الموجوده على السفينة، ثم يأمرون أصحاب السفينة بالنزول منها، ثم يقوم حُفاظ الديوان بمطابقة

١) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (تاريخ المستبصر): تحقيق Lofgren، ليدن١٩٥١، ١٩٥٤ ، جـ١، ١٣٨، ١٣٩، حسنين محمد ربيع: مرجع سابق، ص١١٤، ١١٥.

ما سجلوه من بضائع مع ما هو موجود على السفينة بالفعل، فإذا عثروا على بضائع لم يذكرها أصحاب السفينة، صودرت السفينة بما عليها من بضائع للمخزن في تلك البلاد . وهذا بالطبع كان نظاماً قاسياً جداً[١].

من خلال ما سبق يتضح أن بلاد المغرب الأدنى تواجد بها العديد من المراكز التجارية البحرية، مثل مدن برقة واجدابيه وسرت وطرابلس وقابس وصفاقس والمهدية وسوسه وتونس وطبرقة وبونه وجزيرة وجزيرة جربة. كما دخل في نطاق النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الادنى مراكز تجارية بالمغربين الأوسط والأقصى مثل مدن جيجل وبجاية وتدلس ومرسى الدجاج وجزائر بني مزغناي وتنس وهران وسبته وطنجة، وكذلك المراكز التجارية في بلاد الأندلس مثل مدن ألمرية وبلنسية ومالقه والجزيرة وبجانة والمنكب ودينية وجزر البليار. كما دخل في نطاق النشاط التجاري البحري للمغرب الادنى المراكز التجارية الإفرنجية وجزر بالبحر المتوسط مثل المدن الايطالية خاصة بيزة وجنوة والبندقية، كذلك جزيرة صقلية وجزيرة إقريطش(كريت). بالاضافة لبعض مراكز بلاد الشام مثل مدن عكا وصور وطرابلس الشام ، كذلك دخل في نطاق هذا النشاط بعض المراكز التجارية في مصر والبحر الأحمر مثل مدن الاسكندرية وتنيس ودمياط والفرما وأيلة وميناء عيذاب وجدة وكذلك مدينة (عدن) وجزر دهلك. كما دخلت بعض المراكز التجارية البحرية الموجودة على الطريق للشرق الأقصى في نطاق بحثنا، مثل موانئ عدن وظفار على ساحل الجزيرة العربية الجنوبي، وموانئ كجرات وكاليكوت وكولم مالي على ساحل الملبارغرب الهند، وصولاً لبعض الموانئ الصينية مثل ميناء الزيتون، بالإضافة إلى وجود بعض الجزر بالمنطقة ذات الأهمية التجارية الكبيرة، مثل جزر سرنديب وجاوة وسومطرة، وتلك الجزر يُعتقد أنها كانت ذات أهمية ما في اي مجال من مجالات نطاق دراستنا.

---

١) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٦٣١.

obeikan.com

كما تم من خلال هذا الفصل رصد جميع مؤسسات النشاط التجاري البحري في تلك المراكز مثل الموانئ وما احتوته من مرافئ مثل دور صناعة السفن وأرصفة ومراسي رسوا تلك السفن بالاضافة لمباني إرشاد السفن القادمة خاصة المنارات، كما احتوت تلك المراكز على مؤسسات إدارية مثل الديوان والمصارف، كذلك احتوت على مؤسسات تجارية كالحلقة والفنادق والأسواق العامة والخانات والوكالات والمخازن. كما ظهر من خلال هذا الفصل أسلوب العمل اليومي بتلك المراكز والقواعد والقوانين التي تحكمة، بالاضافة الى الاشارة للرقابة الحكومية على العاملين بالنشاط التجاري البحري في تلك المراكز التجارية. أما السفن التجارية وصناعتها ومواعيد رحلاتها وطرق تلك الرحلات فسوف نتعرف عليه في الفصل القادم.

obeikan.com